الحقائقُ اللامِعة

في

عقائِد الكنيسة الجامعة

مقالات لاهوتية

للاب انطون صالحاني اليسوعي

المطبعة الكاثوليكية . بيروت

١٩٢٦

المقدمة

إن النور متى أشرق لا يحتاج إلى دليلٍ يبيّنهُ. فانّه يسطع للعيون السليمة باشعّتهِ المضيئة فيبهجها ويريها جميع المنظورات. هكذا هو الحقّ. فمتى أُعلِنَ وأُنجلى يقبله العقل السليم وتميل اليه القلوب المستقيمة بدون عناء ولا جدال

ولذا دفعتنا محبّتنا الصادقة لاخوتنا الروم الارثوذكس أن نبيّن لهم حقيقة بعض العقائد الدينية التي لا يسلّمون بها. فاذا أضاء لهم الحقّ لا ريب في انّهم يذعنون لهُ لِما لهم من الرغبة في الخلاص والفوز بالسعادة الابدية

وقبل أن نبيّن هذه العقائد لا بدّ لنا من إيضاح امرٍ تهمّ معرفته فيُنير مَسيرنا لدى شرحها

ان العقائد التي تُعلّمنا اياها الكنيسة المقدسة وتُلزمنا بقبولها والايمان بها هي محتواة في الكتب المُنزَلة والتقليد. والتقليد انما هو تعليم الكنيسة الشفاهيّ المتصل الينا من الرُسل بسلسلة غير منقطعة جيلًا فجيلًا بواسطة آباء الكنيسة ومُعلّميها وإعتقاد جمهور المؤمنين

إلّا إن هذه العقائد الدينية هي كزهرة الورد المستترة في كِمّها (١ فالكِمّ يحتوي على كُلّ ما تتكون منه الزهرة. فاذا انشقّ الكِمّ وتفتّحَ ظهرت الوردة كاملةً بألوانها الجميلة وفاح عَرْفها العَطِر. فتفتّح كِمّ الوردة لا يُكسِبُها الوجود بل يُظهرها فقط للانظار. فهكذا

---

١) الكِمّ غلاف زرّ الورد

هي العقائد الدينيـة التي هي موضوع الايمـان . فالكنيسة المقدسة الجامعة لا تُوجدها ولا تحدثها بل تجدها في الكتب الموحَى بها وفي التقليد فتشرحها وتُوضّحها وتعلّمها وتُلزمنا بالايمان بها تحت طائلة الخطإ

ولدينا تشبيه آخر يبيّن هذا الامر تبياناً أوفر : ان الشمس عندما تُشرق في الصباح يكون نورها ضئيلًا . فاذا ارتفعت في كبد السماء تُلقي على البسيطة أشعّةً تبهر العيون بضيائها الساطع . والشمس هي هي في الصباح والظهيرة والزوال . فهكذا هي عقائد الايمان فانّها بالنسبة الينا يكون بعض الاحيان نورها يسيراً لا بل يكون كنور الشمس المحجوبة بالغيوم أو كما قال القديس بطرس هامة الرسُل « كأنّهُ مصباح يُضيء في مكانٍ مظلم إلى أن ينفجر النهار ويُشرق كوكب الصبح في قلوبكم » (٢ بطرس ١ : ١٩). فالكنيسة الجامعة موكول اليها من مُنشئها ومؤسّسها تعليم البشر ما يتعلّق بالايمان والآداب . فقد امرها في شخص الرسُل قائلًا « اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالانجيل للخليقة كلّها . فمن آمن واعتمد يخلُص ومن لم يؤمن يُدان » (مرقس ١٦ : ١٥ و١٦) « علّموهم أن يحفظوا جميع ما اوصيتكم به وها انا معكم كل الايام الى منتهى الدهر » (متى ٢٨ : ٢٠)

فإتماماً لهذه الأوامر تتناول الكنيسة ما أوحى بهِ الله في الكتب المُنزَلة وما علّمهُ الرسُل فتشرحهُ لنا وتوضّحهُ وتُعلّمنا اياه . فتفعل الكنيسة على الدوام ما فعلتهُ في المجمع العامّ النيقاوي الاوّل عندَما التأم في نيقية في أيام قسطنطين الكبير أساقفة الشرق والغرب تحت رئاسة نوّاب البابا القديس سلوسترس الاول ليحكموا في تعليم آريوس

الذي كان ينكر لاهوت المسيح . فبعد البحث حكموا ان تعليمهُ مخالف للأسفار المقدّسة ولتعليم الكنيسة منذ نشأتها . وشرحوا ما كان مدوّناً بايجاز في قانون الرسل عن السيّد المسيح « أؤمن بربّنا يسوع المسيح ابن الله الوحيد » فوضّحوا هذا القانون كما يلي : « أؤمن بربٍّ واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد . المولود من الآب قبل كل الدهور . إله من إله . نور من نور . إله حقّ من إله حقّ . مولود غير مخلوق . الذي له وللآب جوهر واحد . الذي بهِ كان كل شيء . الذي من أجلنا الخ » . فجمع نيقية اذ قرّر المعتقَد بلاهوت المسيح وشرحَ قانون الرسُل لم يُحدِث معتقَدًا جديدًا لم يُعرف قبلهُ بل وضّح ما كانت تؤمن بهِ جماعة المؤمنين . وبيّن ما كان علّمهُ الرسُل وما كان مُحتوًى في الاناجيل المقدسة

وهكذا القول عن سائر المجامع العامّة الملتئمة تحت رئاسة خليفة بطرس ونائب المسيح على الارض . وهذا ما تفعلهُ ايضاً السلطة العليا في الكنيسة اعني الحبر الاعظم إذ يوجّهُ خطابهُ الى الكنيسة جمعاء كمعلّم اقامهُ السيّد المسيح ليعلّم المؤمنين ما يتعلّق بالايمان والآداب

وقد يكون موضوع الايمان ضمن الكتب المنزلة كالتِبر في معدنهِ فيُقتضى استخراجه وتمحيصه ليظهر بلمعانهِ للسُذَّج فضلًا عن العلماء . الّا ان هذا العمل يختصّ بالسلطة التي فوّض الله إليها وظيفة التعليم وتفسير الكتب المقدسة وهذه السلطة انّما هي سلطة الكنيسة . لأن في الاسفار المقدسة اشياء صعبة الفهم لا يتأتّى حلُّها لكل واحد . وقد بيّن ذلك بطرس الرسول في رسالتهِ الثانية (٣ : ١٥ و١٦) حيث قال عمّا كتبهُ

بولس الرسول : «كما كتب إليكم اخونا الحبيب بولس على حسب الحكمة التي أُوتيها كما في رسائلهِ كلّها ايضاً متكلّماً فيها على هذه الامور الّا انّ فيها أشياء صعبة الفهم يُحرّفها الذين لا عِلمَ عندهم ولا رسوخ كما يفعلون في سائر الكتابات لهلاك نفوسهم» . وقال ايضاً : «عالِمين قبل كلّ شيء انّ كل نبوّة في الكتاب ليست بتفسير فرد من الناس . لانها لم تأتِ نبوّة قطّ عن ارادة بشر بل انّما تكلّم رجال الله القديسون محمولين بإلهام الروح القدس» (٢ بطرس ١ : ٢٠ و٢١) . فكما ان الكتب المقدسة لم تُكتب الّا بإلهام الروح القدس كذلك لا يمكن ان يُفسَّر شيءٌ منها تفسيراً صحيحاً الّا بموهبة الروح القدس . وهذه الموهبة لم تُعطَ لكلّ احد كما صرّح بذلك القديس بولس في رسالتهِ الاولى الى أهل كورنتس (١٢ : ٨) : «يُعطى واحدٌ بالروح كلام الحكمة وآخر كلام العلم بذلك الروح عينهِ»

فينتج مما سبق ان موهبة التعليم والتفسير لم تُعطَ للجَميع بل مُنحت على الخصوص للذين اقامهم يسوع المسيح رُسلًا ورعاة ومعلّمين (افسس ٤ : ١١) تحت رعاية ذاك الذي قال لهُ «ثبّت اخوتك» (لوقا ٢٢ : ٣٢) . «إرعَ خرافي . إرعَ غَنَمي» (يوحنا ٢١ : ١٥ و١٦ و١٧) . «أنت الصفاة وعلى هذه الصفاة سأبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها» (متى ١٦ : ١٨) وما ذاك الّا بطرس وخلفاؤه . لان وجود الكنيسة لا يقتصر على ايام رُسل المسيح وتلاميذه بل يدوم الى منتهى العالم . وكذلك وجود الرئاسة والسلطة فيها . فقد قال السَّيّد لهُ المجد : «ها انا معكم كلّ الايام الى مُنتهى الدهر» (متى ٢٨ : ٢٠)

موضوع المقالات :

١ عقيدة الحبل بمريم العذراء بلا دنس
٢ صحّة الاستحالة في الاوخارستيا سواء كان الخبز فطيرًا او خميرًا
٣ في سرّ المعمودية وفي صحّة العماد بالتغطيس او بالصبّ
٤ رئاسة القديس بطرس على الكنيسة جمعاء
٥ انبثاق الروح القدس من الآب والابن
٦ الطلاق عند المسيحيين او فسخ عَهْد الزواج المكمّل التامّ ممنوع على الاطلاق حتى في حادث الزنى

كنا نشرنا هذه المقالات سابقاً في جريدة البشير او في مجلة المشرق فحازت قبولًا واستحساناً عند الجميع . فأحببنا ان نزيدها ايضاحاً ونجمعها في هذا المُؤلَّف تعميماً للفائدة

بيروت في يوم عيد الفصح ١٩٢٦

الاب انطون صالحاني اليسوعي

عقيدة الحبل بمريم العذراء بلا دنس

ما اشدَّ رغبتنا في ان يتعمّق اخوتنا الروم الارثذكس في درس ما تعلّمه الكنيسة الكاثوليكية بخصوص عقيدة الحبل بمريم العذراء بلا دنس. لانهم لو فعلوا لأدركوا جيّدًا مُعتقد الكنيسة الكاثوليكية وتعليمها ولكانوا قبلوه بدون ادنى تردّد. لانّنا متحققون انهم يكرمون العذراء ويحبّونها ويتعبّدون لها ولا يضنّون عليها بامتياز فريد خصّها الله بهِ. ولنا الامل الوطيد ان عبادتهم للبتول تعطف عليهم امّ الله فتوضح لهم الحقّ فيذعنون له

امّا انهم لا يدركون تعليم الكنيسة الكاثوليكية بخصوص عقيدة الحبل بمريم العذراء بلا دنس فلنا دليل واضح على ذلك من كلام غبطة السيد البطريرك القسطنطيني انثيموس السابع في المنشور الذي كتبه سنة ١٨٩٥ ردًّا على دعوة البابا لاون الثالث عشر الى الاتحاد. قال غبطته (في الصفحة ١٣ و١٤) ما نصُّه:

« الكنيسة الواحدة المقدسة الجامعة الرسولية كنيسة المجامع المسكونية السبعة تعتقد ان ابن الله الوحيد وكلمته وحده بتجسده تجسدًا يفوق الطبع قد وُلد من الروح القدس ومن العذراء مريم بلا دنس واما الكنيسة الباباوية فقد استحدثت في ذلك معتقدًا جديدًا وحكمت من مدة لا تزيد عن اربعين سنة بوجوب الاعتقاد بمعتقد جديد ألا وهو الحبل بالعذراء مريم والدة الاله بلا دنس. مع ان الكنيسة القديمة ما عرفت أبدًا هذا المعتقد وقد قاومه قبل الآن اشهر علماء اللاهوت البابويين »

فهلمَّ ننظر الآن في مكان هذا القول من الصحة ولنبحث عمَّا اذا كانت الكنيسة القديمة عرفت هذا المعتقد والى ايّ الادلّة استندت

١

ماذا يُراد بالحبل بمريم العذراء بلا دنس

لا مندوحة من الملاحظة في بادئ الامر ان كلام غبطته من مقابلته بين الحبل

بيسوع والحبل بمريم العذراء يوهم ان الكاثوليك يعتقدون انّ العذراء حُبل بها كأبنها الالهي من الروح القدس. والحال ان الكاثوليك هم أبعد من ان يقولوا بهذا القول الفاسد اذ يعترفون انّه حُبل بمريم العذراء بمقتضى الطبيعة من يواكيم ابيها وحنة امّها. فالحبل بها بلا دنس يخصّ نفسها اوّلًا اي انها منذ حُبل بها وُجدت بريئة من الخطيئة الاصلية او الجدّية كما يسميها الروم نسبة الى آدم الجدّ الاول

ولفهم ذلك نقول ان الخطيئة هي عبارة عن فقدان النفس للنعمة المبرّرة وعن كونها عدوةً لله وموضوع سخطهِ ولعنتهِ وعبدةً للشيطان ومستحقةً للهلاك. فقولنا ان العذراء حُبل بها بلا دنس هو نظير قولنا ان نفسها مذ خلقها الله واتحدت بالجسم حال تصوُّرهِ في البطن كانت فائزة بالنعمة المبرّرة وصديقة لله ومستحقة رؤيته في السماء. وكل ذلك بالنظر السابق الى استحقاقات السيد المسيح الذي انتخبها منذ الازل لتكون امًّا لهُ. هذا هو الاعتقاد الكاثوليكي

ولتبيان ذلك نقول ان الله وهب العذراء حين الحبل بها ما يهبنا نحن حين نقبل سرَّ العماد المقدَّس. فالطفل اذ يُعمَّد تُمحى من نفسهِ الخطيئة الاصلية. ومن ثم تُزيَّن نفسهُ بالنعمة المُبرّرة والمواهب الروحية التي تجعله ابنًا لله بالتبني ومسكنًا للروح القدس واخًا ليسوع المسيح ومستأهلًا الميراث السماوي. فهذا بعينهِ منحه الله للعذراء عندما خلق نفسها التي اتحدت بجسمها فور تكوُّنها في احشاء والدتها القديسة حنة. مع هذا الفرق العظيم بيننا وبين العذراء. وهو اننا اذ تُخلَق نفسنا وتتّحد بجسمنا عند ما تحبل بنا أمّنا نكون مدنّسين بالخطيئة الاصلية خطيئة آدم ابينا الاول. ونتطهَّر منها بالعماد المقدس. امَّا العذراء مريم فلم تُخلَق بحال الخطيئة ثم تطهَّرت منها بل خُلقت في حال النعمة المُبرّرة عندما تكوَّنت في احشاء والدتها القديسة حنة لان الله عصمها من اللعنة التي اتصلت الى سائر اولاد آدم. فكانت في حال تكوُّنها في احشاء والدتها حائزةً على النعمة المبرّرة ولم توجد ولا لمحة بصر مُلوَّثةً بالخطيئة الاصلية

هذا ما نسمّيه الحبل بمريم العذراء بلا دنس ونعيّد له. وهذا ما يُسمَّى في ليتورجية الروم حبل حنّة ويعيّدون له في التاسع من كانون الاوّل

واليك تشبيهاً بسيطاً يوضح هذه الحقيقة ويُسهّل على العقول ادراكها: انّ نفسنا التي يخلقها الله حالما تحبل بنا والدتنا هي كاولوّة وقعت في الوحل فتلوَّثت. فاذا

غُسلت بماء نقيّ عادت متلألئة بهاء. امّا العذراء مريم فحالما خُلقت نفسها واتحدت بجسمها إذ حبلت بها والدتها كانت كلؤلؤة وقعت في ماء نقيّ فلم تتلوّث ولم تكن محتاجة الى تطهير لانّ الله عصمها من غضبه ومن ان تلحق بها خطيئة آدم. فخُلقت مزيّنة بالنعمة المبرّرة وذلك اجلالًا لابن الله آدم الجديد المزمع ان يتجسّد في احشاء الطاهرة مريم العذراء التي هي حواء الجديدة

ان الله قد علّق على العماد منح البرارة لنفس الطفل وذلك لمجرّد ارادتهِ أفلا يستطيع لمجرّد ارادته ايضاً ومحبتهِ لوالدة ابنهِ ان يمنح نفسها نعمة البرارة حالما خلقها. لا ريب في ان الله يقدر على ذلك ويريدهُ. فنقول انّ الله ارادهُ وفعلهُ

وعليهِ فان يسوع هو مخلّص العذراء كما انهُ مخلص سائر البشر ولكن مع هذا الفرق وهو انهُ مخلص سائر البشر بعد ان كانوا قد تلطخوا بوصمة الخطيئة. اما العذراء فاجلالًا لشرف كونها امّ المخلص قد منحها مفاعيل الفداء بنوع ممتاز بأن سبق فعصمها من ان يلحقها وصم الخطيئة (١

٢

في الادلة العقلية واللياقية المثبتة هذا المعتقد

١ ان الله تعالى لما كان الطهارة بالذات لم يكن ممكناً ان يختار لهُ الّا امّا طاهرة نقية . لانهُ اذ كان قدُّوساً وعدوًّا لكلّ دنس وبالوقت نفسهِ قادرًا على كل شيء يمكنه ان يصون من الدنس ايّ مَن اراد . ومَن انكر ذلك فقد كفر. فلذلك بما انهُ كلّي النقاوة لم يُرِد سوى امٍّ نقية. وبما انهُ كلّي القدرة كان في امكانه ان يحقّق ما يريد اي ان يصطفي والدةً هذه صفتها. فاذًا قد خلقها على التأكيد والتحقيق بلا عيب ولا دنس لا أنهُ طهّرها فقط بعد ان تدنّست كما طهّر ارميا ويوحنا المعمدان

١) ان العذراء مريم عُصمت ليس فقط من الخطيئة الاصلية لكن ايضاً من تبعاتها الباقية فينا بعد المعمودية اي الاميال المنحرفة والشهوة التي تتملّقنا وتجتذبنا الى ارتكاب الخطيئة كما قال يعقوب الرسول (١ : ١٤) وبولس الرسول (رومية ٧ : ٢٣ و ٢٤). وهذه الاميال في حدّ ذاتها ليست فينا اثمًا اللهمّ اذا لم نستسلم لها. وانما تبقى فينا لكي نحاربها ونقاومها وننتصر عليها فننال الجزاء السماوي وذلك بنعمة سيدنا يسوع المسيح. امّا العذراء مريم فلم تكن فيها هذه الاميال كما انّ آدم وحواء قبل خطيئتهما لم يكونا مُعرَّضين لها

والعقل يدلّ على ان الله تعالى لو كان تركَ الخطيئة تتسلط ولو دقيقةً واحدة على مريم التي اختارها منذ الازل لتكون امًّا لهُ لصحّ القول انهُ اختار والدته لا الفائقة الطهارة كما تقول الكنيسة اليونانية بل (معاذ الله) امرأةً غير طاهرة وعبدةً للخطيئة وللشيطان وموضوع لعنة الله وغضبهِ وانه لم يسكن في مريم الّا بعد ان كان الشيطان قد امتلك نفسها. وانهُ لم يُرِد او لم يستطع ان يصون والدته، التي يحبُّها اكثر من جميع الملائكة والبشر، من ظلم عدوّهِ ويَقيها سمَّ الأفعى الجهنمية اي وصمة الخطيئة. وانهُ لم يُرِد او لم يستطع ان يخوّل والدتهُ المباركة هذه المنحة العزيزة منحة البرارة التامّة التي وهبها للملائكة ثم لآدم وحواء اللذين لم يكونا سوى عبدَيه ثم خالفا وصيته

لأمرٌ ثابت انهُ لم يُمنَح أحد من الملائكة او البشر موهبة الّا وقد مُنحت لامّ الله لانها كما يقول مناون الروم «اقدس من جميع الملائكة والقديسين» وهؤلاء هم عبيد الله. أمّا البتول المجيدة فانها والدة الاله. ولا يخفى ان الملائكة لم يلحقهم دنس البتة وآدم وحواء خُلقا في حالة البرارة والقداسة. فهل يليق ان تكون والدة الاله احطّ منزلة من الملائكة ومن آدم وحواء

وقصارى الكلام لو ان الله لم يُعفِ امّه من الخطيئة الاصلية لكان عمل ما يخالف قداسته وحرمته وانعطافه الابني وقدرته الضابطة الكل . وكل هذا محال وباطل لا يمكن القول به لان الله جلّ وعلا لا يستطيع ان يعمل عملًا غير لائق بهِ وبأمهِ. بل انّ ما عملهُ هو بعكس ذلك لائق كل اللياقة بعظمته الالهية وعظمة ملكة السماء والدتهِ القديسة

٢ وهذه اللياقة تظهر للعقل من وجه آخر وهو ان الله عزَّ وجلَّ قد انتخب مريم العذراء لتكون وسيطة للصلح والسلام بينهُ تعالى وبين البشر حسبما يقول الآباء القديسون . فالقديس باسيليوس الكبير يهتف نحوها قائلًا «السلام عليكِ يا وسيطة الصلح فيما بين الله والبشر» . ويقول ايضاً «انها حواء الجديدة امّ الحياة» كما ان حواء الاولى وُجدت امّ الموت وسبب الهلاك . والقديس يوحنا الدمشقي (في ميمره الاول على ميلادها) يهتف نحوها قائلًا «انكِ قد وُلدتِ ايتها البتول المباركة لتكوني خلاصاً لسكّان الارض كلّها» . والقديس ثاوفانوس اسقف نيقية

يُسلّم على العذراء قائلًا « السلام عليكِ يا مُصلِحة حزن حواء المُنقِذة اياها من الغموم ». والقديس افرام السرياني يبتهل اليها قائلًا « السلام عليكِ يا مُصالحة العالم بأسره مع خالقهِ ». ومناون الروم يقول عن البتول انها « امّ الحياة. إعادة جبلة آدم. نجاة آدم وحواء من اللعنة. علامة المُصالحة وتجديد الجبلة. الخ »

ومن الواضح ان من كان وسيطاً للصلح ينبغي ان لا يكون عدوًّا البتّة للمُهان وان يكون ناجياً من الاشتراك في جريرة الاهانة عينها. فاذا أُريد مثلًا استعطاف الملك وتسكين غضبه يجب ان لا يمضي اليهِ كوسيط شخصٌ يكون عدوًّا لهُ والّا فعوضاً عن اكتساب رضاه واستمالتهِ الى الصفح يشتدّ رجزهُ على المجرم. فكذلك اذا كانت مريم وسيطة للصلح بين الله والبشر فيليق كل اللياقة ان لا توجد هي ايضاً مدنّسة بالخطيئة ولا مشتركة في العداوة لله عزّ وجلّ بل يجب ان تكون بكلّيتها صديقةً لهُ بريئة من الذنب متنزّهة عن دنس المَعصية

٣ ان داود الملك لمّا هيّأ كلّ ما كان لازماً لتشييد هيكل الله في اورشليم بنوع لائق بالرب قال: « العمَل عظيم لان الهيكل ليس لبشرٍ بل للرب الاله »(١ فكم بالحري يلزمنا ان نعتقد بأنّ الاله الكلّي القداسة لما هيّأ لابنهِ مسكناً وهيكلًا وأُمًّا لزم ان يجعلها بالقداسة والنقاوة لتكون مسكناً لائقاً بابن الله واماً لائقة بهِ لئلّا يكون تجسده من أُمّ مَعيبة بجريرة الاثم والمعصية ولئلّا يستطيع لوسيفوروس ان يعيّره بانهُ وُلد من امّ كانت في وقتٍ من الاوقات اسيرةً لهُ وخاضعة لسلطتهِ الجهنمية وعدوّةً لله. حاشا لامّ الله من هذا العيب. فان الله سبق ودبّر ما يليق بكرامة ابنه الالهي وحفظ هذه الوالدة بريئة من دنس الخطيئة الاصلية. هذا ما يقولهُ مناون الروم: «ان الجالس مع الآب منذ الازل قد أهّلكِ لان يتكنّ في احضانكِ». «بما انكِ تابوت متنفّس الله فلا تلمسك يدٌ مدنسة». «تقدستِ لهُ قبل الحبل بكِ». ولهذا قال القديس اوغسطينوس « ان ابن الله لم يصنع لذاتهِ بيتاً آخر اشرف من والدته مريم التي لم تخضع قط لاعدائهِ ولا تعرّت من حليتها ». والقديس كيرلّس الاسكندري يقول:(٢ « من سمع قط ان احد مَهَرة المهندسين بعد ان يكون شيّد لذاته بيتاً

١) سفر اخبار الايام الاول ٢٩ : ١

٢) في العدد السادس من اعمال المجمع الافسسي

خاصًّا بهِ يُعطي اوّلًا لعدوّهِ الالدّ حقّ التملّك والاستيلاء عليه»

قال القديس ليكوري : « ان كانت مريم هي تلك المرأة الباسلة التي اوجدها الله في العالم لتنتصر على لوسيفوروس فلم يكن لائقاً ان تكون قد غُلبت قبلًا من هذا العدوّ الجهنمي وصارت في أسره. بل بالحري قد لاق بالصواب ان تكون هي بريئة من دنس كل خطيئة وناجية من اية ولاية كانت للعدوّ الجحيمي عليها . اي نعم ان لوسيفوروس المتعجرف قد اجتهد في ان يدنّس نفس هذه البتول الكلية الطهارة بالنوع الذي بهِ دنّس بسمّهِ القتّال نفوس جميع البشر . ولكن فليكن دائماً مسبّحاً وممجّداً صلاح الله الذي سبق وملأ هذه النفس المباركة نِعماً عظيمة جدًّا حتى انها اذ استمرّت ناجية من تبعة المعصية وسالمة من دنس كل خطيئة استطاعت ان تحارب الحية الجهنمية المتكبّرة وتغلبها منتصرة عليها كما يقول القديس اوغسطينوس (او مَن يُنسب اليهِ تفسير سفر التكوين) : « انهُ اذ كان الشيطان هو رأس الخطيئة الاصلية فمريم قد سحقتهُ لأن الخطيئة لم تجد في نفسها النقية مدخلًا فوُجدت بريئةً من كل دنس» . و كما يقول القديس بوناونتورا «انهُ قد كان واجباً ان مريم البتول الطوباوية المُزيحة عنّا العار والاهانة تنتصر على الشيطان وأن لا تُجعل في حوزته بنوع من الانواع اصلًا»

ذلك ما اجمع عليهِ الآباء والملافنة وعلماء اللاهوت وذلك هو اعتقاد كل نفس مسيحية

يجب ان لا تكون مريم وُصمت مطلقاً بأدنى عيب حتى تكون لائقة بالله . فاذًا خُلقت دون وصمة الخطيئة الاصلية بسبب مقامها الذي لا شبيه لهُ . هذا ما تعلّمهُ وتنادي بهِ الكنيسة الكاثوليكية وبتحديدها عقيدة الحبل بلا دنس لم تأتِ شيئاً جديدًا بل علّمت تعليم الكتاب المقدس والآباء الاقدمين من اليونانيين واللاتينيين وها نحن نشرح ذلك فنقول:

٣

في اثبات عقيدة الحبل بلا دنس من نصوص الكتاب المقدس

١ جاء في سفر التكوين (فصل ٣ ع ١٥) ان الله تعالى بعد خطيئة ابوينا الاولين اعلن فداء الجنس البشري في مستقبل الزمان وقال للشيطان الذي بصورة

الحية خدع حواء وبحوّاء خدع آدم : « اجعلُ عداوةً بينكِ وبين المرأة وبين نسلكِ ونسلها فهو يسحق رأسكِ وانتِ ترصدين عقبه ». فهذا النص يشير حسب رأي الآباء وتعليم الكنيسة الشرقية ذاتها الى فادي الجنس البشري السيد المسيح والى والدتهِ مريم العذراء (١

قال ايسيدورس من بيلوزة ان نسل المرأة التي يغرس فيها الله بغضة الحية هو سيدنا يسوع المسيح لانهُ ابن تلك المرأة الوحيد المولود منها دون مقارنة رجل وبدون ادنى مساس لطهارتها » (الرسالة ٤٢٦). والقديس قبريانوس لدى استشهاده بآية اشعيا « ها العذراء تحبل وتلد ابناً » يهتف قائلًا « ان هذا هو النسل الذي اشار اليهِ تعالى في سفر التكوين بانهُ سيخرج من المرأة ويسحق رأس الحية» (الى كيرينوس ك ٢ ف ٩)

فالله اذًا قال للشيطان انهُ يجعل بينه وبين العذراء مريم وبين نسلهِ ونسلها الذي هو المسيح الفادي عداوة عظيمة دائمة. غير ان هذه العداوة التي انذر الله منذ البدء بانهُ يجعلها بين مريم وابنها من جهةٍ ومن جهة اخرى بين الحية ونسلها اي الخطيئة والذين يرتكبونها تدل دلالةً صريحةً على ان العذراء مريم المصطفاة منذ الازل لتكون أمّ الله لم يشملها الطغيان العام الذي جعل سائر البشر اعداء الله وعبيد الشيطان ولكنها استُثنيت كأبنها الوحيد ممّا اصاب الناس جميعاً دون ان تخضع لسلطة الشيطان او تتدنّس بنفثتهِ السامّة

وكانت نتيجة هذه العداوة ان رأس الحية انسحق اي ان الابن وامّه انتصرا انتصارًا تامًّا على الشيطان. اما الابن فبقوته الذاتية واما الامّ فبنعمة وقدرة ابنها. لكن هذا الانتصار الذي يصوّره الكتاب المقدس كنتيجة عداوة وبغضة الابن والامّ معاً للشيطان ايمكن ان نصفه بكونهِ تامًّا من قِبل العذراء اذا لم تكن قد

١) ان التعليم المسيحي للكنيسة الارثوذكسية الشرقية تأليف اندراوس كاروميلا المثبت من اللجنة المركزية الكنائسية والمطبوع في اثينة سنة ١٨٤٨ يقول ما نصه :

« سؤال : هل بقي للبشر رجاء في الخلاص. جواب : انَّ ابوينا الاولين لمَّا اقرّا بزلتها امام الله اعطاهما برحمتهِ رجاء في الخلاص. سؤال : وبأيّ شيء كان يقوم هذا الرجاء. جواب : ان الله وعدهما بأن نسل المرأة سيسحق راس الحية (الفصل ٣ : ١٥). سؤال : لماذا سمي يسوع نسل المرأة. جواب : لانه وُلد على الارض دون مقارنة رجل من مريم العذراء الكلية القداسة »

عُصمت من وصمة الخطيئة الاصلية. أوَ ليس الاحرى اذ ذاك ان الحية التي يصوّرها الكتاب مسحوقة الرأس تكون هي قد انتصرت على المرأة وسحقت رأسها لو كانت المرأة ساهمت بقية الناس في الخطيئة الاصلية . فبكل صواب اذًا وعدل نستنتج من هذا النصّ ان العذراء لم تشترك اصلًا في الخطيئة الاصلية لكنها عُصمت منها كما عُصمت من شرائع اخرى طبيعية بما انها أمّ الله بل حُبل بها بلا دنس ومنذ خُلقت نفسها كانت مزدانةً بالنعمة الالهية

٢ ثم ان الروح القدس اذ يتكلم في سفر النشيد عن عروسهِ مريم العذراء (١ يقول « كالسوسنة بين الشوك كذلك خليلتي بين البنات » (نشيد ٢ : ٢). فماذا يراد يا ترى بالشوك الّا الخطايا التي تجرح وتمزّق النفس ولا سيما الخطيئة الاصلية بما انها منبع سائر الخطايا. وماذا يراد بالسوسنة سوى بهجة وعَرف الطهارة. فاذًا خليلة الروح القدس والسوسنة بين الشوك هي مريم الطاهرة وحدها بين النفوس الخاطئة

ويؤيد المعنى الذي تفهمهُ الكنيسة من هذا النصّ ما نقرأهُ في مناون الروم الارثوذكس المطبوع ببيروت في الصفحة ١٣٧ من الجزء الاوّل : «يا امّ الاله ان الكلمة الختن لما وجدكِ فيما بين الاشواك كسوسنة طاهرة كلية النقاوة وزهرةً في الرياض حلّ في احشائك ». ويؤيده ايضاً الروح القدس بقولهِ « كاملتي وحيدة » (نشيد ٦ : ٨). وكيف تكون عروسهُ وحيدةً فريدةً في كمالها اذا لم تُميَّز بمنحةٍ وحيدة لا يشترك فيها غيرها من البشر اي بعصمتها من الخطيئة الاصلية التي تدنّس كل الناس ومن الميل الى الشرّ الذي تتركه فيهم هذه الخطيئة حتى بعد ان تُغفر لهم

فاذًا يلزم الاقرار بان العذراء هي كاملة بعصمتها عصمة مطلقة من كل خطيئة واختصاصها بطهارة غير مدنسة أبدًا حتى ان الروح القدس أُعجب بهذه العروس الوحيدة في كمالها وهتف نحوها قائلًا « جميلة انتِ يا خليلتي جميلة انتِ . كلُّكِ جميلة يا خليلتي ولا عيب فيكِ » (نشيد ٤ : ١ و ٧)

١) لا تنكر ان سفر النشيد هو رمز الى السيد المسيح المخلص وعروسهِ الكنيسة المقدسة. ولكن نعلم ان الكنيسة الشرقية والغربية تتفقان على تفسير هذا السفر ايضاً عن الروح القدوس وعروسه مريم العذراء القديسة. وكفى دليلًا على ذلك ما اقتبسهُ الآباء من هذا السفر ليخصّصوه بمريم البتول

هذا ما يعنيهِ ايضاً مناون الروم اذ ينادي العذراء « يا بريئة من جميع العيوب. ويا كلّية الطهارة وحدكِ » (الجزء الاول الصفحة ٢١ و٢٢)

أفيسوغ اذًا لايٍّ كان ان يناقض الروح القدس ويناقض المناون ويدّعي ان نفس العذراء تلطخت بعيب الخطيئة الاصلية وشناعتها. هل وُجد في تحديدات المجامع السبعة المسكونية التي يقرّ بها ويقبلها اخوتنا الروم او في تعاليم آباء الكنيسة ان عصمة مريم العذراء من الخطيئة الاصلية تحطّ من منزلة ابنها. او ليس بالضدّ يكون تجسده من أمّ لا عيب فيها ولا دنس هو اشرف وأجلّ. فالزعم بأن مريم العذراء لم يُحبَل بها بلا دنس يحطّ من منزلة وشرف الامّ والابن معاً

٣ واليك آيةً اخرى من الكتاب المقدس تثبت اثباتاً واضحاً الحبل بلا دنس بمريم العذراء امّ الله « مَن هذه المُشرفة كالصبح الجميلة كالقمر المختارة كالشمس المرهوبة كصفوف تحت الرايات » (نشيد ٦ : ٩)

فترينا هذه الآية مريم في «صبح» وجودها اي في بدئه ومذ تلك الدقيقة أُعلنت انها جميلة كالقمر ومختارة كالشمس ومرهوبة كصفوف تحت الرايات « من شياطين الظلمة الذين انتصرت عليهم انتصاراً تامًّا » حسب عبارة الليتورجية اليونانية. ولكن كيف تكون حاصلة منذ صبح وجودها على هذا الجمال والبهاء لو كانت نفسها قد تلطخت بشناعة الخطيئة. وكيف تكون مرهوبة من الابالس لو كانوا قد انتصروا عليها وكانت ولو دقيقة من الزمان عبدةً لهم بالخطيئة الاصلية (١

وقد بقيت شهادات اخرى من الكتاب المقدس تثبت هذه العقيدة الا اننا اضربنا عنها اختصاراً

١) « وان طلبتَ ايضاً ان تعلم مَنْ هي هذه الطالعة كالفجر فاعلم مما قالهُ عنها الروح القدس بلسان الختن كما جاء في سفر النشيد واحدة هي حمامتي كاملتي الوحيدة . . . هي العذراء الطالعة كالفجر والممتازة عليهِ ايضاً بفائق طهارتها. فلتشهد السماوات والارض ولتشهد الشمس عين النهار الساطعة الضياء والقمر طرْف الليل الجزيل البهاء والنقاء. والعالم كلهُ الحسّي والعقلي ليقلْ هؤلاء ان كانوا رأوا عذراء كهذه شريفة نقية ومنزهة عن العيب. حاشا وكلّا لم يروا ولن يروا ولذلك قيل في النشيد انها وحيدة ». كلام مَن هذا أكلام كاهن كاثوليكي يعظ في كنيسة كاثوليكية؟ بل هو كلام روم ارثوذكسي مُدرج في الصفحة ٢٩٨ من الجزء الثاني من كتاب البوق الانجيلي المطبوع بامر سيادة كيريوس غفرئيل مطران بيروت سنة ١٨٨٩. وهذا الكلام من عظة تلاها كير افرام اذ كان كاروزًا في جزيرة قبرس واراد كما ورد في البوق الانجيلي

٤

في اثبات هذا المعتقد من شهادات آباء الكنيسة

بعد ان بيّنا من نصوص الكتاب المقدس ان امَّ الله هي بريئة من الخطيئة الاصلية وانها حائزة البرارة والقداسة في وقت الحبل بها هلمَّ الآن نسمع آباء الكنيسة يعلّمون عقيدة الحبل بمريم العذراء بلا دنس

شهادات آباء الكنيسة الشرقية

قال القديس يوحنا الذهبي الفم في ميمره عن عيد البشارة: « أُرسل (جبرائيل) المُعتَق من الخطيئة الى التي لم تقبل فسادًا . . . امضِ الآن باسراع يا مؤتمن على السِّرّ الى القديسة مريم العذراء وبشّرها. اذهب الى مدينة الله النفسانية التي قال عنها النبي ان امورًا مجيدة قيلت من اجلكِ يا مدينة الله. امضِ الى فِردَوْسي الناطق. اذهب الى بابي الشرقي. امضِ الى المَسكِن النقي المستحقّ لحلول كلمتي. اذهب الى السماء الجديدة التي على بسيطة ارضي . . . اذهب الى المكان الاقدس المستعدّ لي. امضِ الى الخِدر الملوكي المُتقَن لتأنُّس وحيدي. اذهب الى العروس النقية المهيَّأة لميلاد ابني الجسدي . . . افرحي يا من طردت الموت الى العمق من حين كانت في احشاء أمّها . . . القريبة من اللاهوت الازلي والثالوث العنصري الفائقة العلوّ على المواكب الشاروبيمية. العالية السموّ على الصفوف الساروفيمية» (البوق الانجيلي الجزء ٢ الصفحة ٣٣٤). فاذا كانت قد طَرَدت الموت وهي في احشاء امّها وما الموت هنا الّا فساد الخطيئة المميت للنفس فتكون اذًا مقدسة مذ حُبل بها

ثم ان القديس بروكلوس رئيس اساقفة القسطنطينية وتلميذ يوحنا فم الذهب لما

ان « يوضح فيها سوء اعتقاد الغربيين بزعمهم ان والدة الاله غير مساهمة للخطيئة الجدّية. وان ذلك ينسب الى البتول لؤمًا والى الله تعالى ظلمًا ». فأيّد (غفر لهُ الله) المعتقد الكاثوليكي من حيث لا يدري وبرهن ضدّ ما يُقري ويفري. فاذا كان قد حقّ ان يقال (البوق الانجيلي في الصفحة ١٣٨) « قد كان لائقًا بذلك الجسد الكلي قدسه ان يحفظ سالمًا بغير فساد من الموت ايضاً » فكم بالحري يحقّ لنا ان نقول كان لائقًا ان نفس مريم تحفظ سالمة من فساد الخطيئة الاصلية

لاحظ ما اختصّت بهِ العذراء مريم من المنح الشريفة مثّل الشيطان متكلماً عنها كما يلي:

« علينا ان نجدّد الحرب ونستأنف القتال ولكن هذه المرّة مع امرأة ثانية امرأة كلّية الطهارة. ان امرأة الانسان المجبول من تراب قد غُلبت حالًا بنظرة نظرتها. غير ان هذه التي تؤيّدها يدا الانسان السماويّ هي مَحميّة ومَصونة كلّ الصيانة... فهل نمتنع عن نصب المكايد لها بسبب الحماية الالهية التي تحوطها. وهل نعدِل عن كراهتنا لها بسبب الاتحاد السماوي الذي يحميها. وهل الطغمة الشيطانية لا تُزعزِع سور البتولية » (في عظتهِ السادسة على العذراء)

والقديس يوحنا الدمشقي بعد ان بيّن ان الروح الشرير لم يقوَ على ان يجرح نفس البتول ولا ان يرميها كسائر النساء بنبالهِ السامّة قال مخاطباً العذراء: « ايتها الابنة الجزيلة القداسة ليواكيم وحنة التي نجت من القوات الجهنمية ومن نِبال الروح الشرير الملتهبة والتي عاشت في منازل الروح القدس وحُفظت بلا عيب حتى تكون عروساً لله. ايتها الابنة اللائقة بالله جمال الطبيعة البشرية التي اصلحت زلّة حواء أمّنا » الخ... (في العظة الاولى على ميلاد ام الله)

والقديس افرام يقول هكذا عن انتصار العذراء القديسة على الشيطان: « السلام عليكِ يا من استعادت آدم من منفاه وفدَتْ حواء. السلام عليكِ ايتها البتول النقية التي سحقت راس الحية اصل الشرّ ودَهْوَرَتها مقيَّدةً في الجحيم » (في عظتهِ على والدة الله). وجاء ايضاً في الميمر المنسوب الى القديس يوحنا فم الذهب عن بشارة ام الله: « افرحي ودوسي رأس الحية. افرحي ايتها المملوءة نعمةً. ها قد كفّت اللعنة وانهدم الفساد وأزهر الفرح الآن »

فمن هذه الشهادات وكثير غيرها التي يُعظِم فيها الآباء انتصار مريم على الشيطان يتّضح ان العذراء مريم الكلّية القداسة لم تخضع اصلًا لسلطة الشيطان بصيرورتها عبدة للخطيئة وانها تنتمي مع ابنها الالهي لا الى مصافّ الساقطين بل الى مصافّ القائمين وانهُ لا شيء يخالف تعليم الكتاب المقدس والآباء القديسين مثل القول بان مريم العذراء مشتركة مع سائر البشر في الخطيئة الاصلية

ثم ان تعليم الآباء القديسين عن الحبل بلا دنس بمريم العذراء يتضح بجلاء اعظم

من النعوت والاوصاف التي يصِفُونها بها (والتي سننظر اكثرها في مناون الروم) فانهم ينعتونها بقولهم: ارض جديدة اخذ منها آدم الجديد جسده كما ان آدم الاول كُوّن جسده من ارض طاهرة لا عيب فيها — بستان سماوي غرسهُ الله افضل من فردوس عدن — ابنة آدم غير انها مفترقة كل الافتراق عن هذا الأب الاول — وردة بين أشواك الطبيعة الفاسدة — زهرة متضوّعة العَرْف ومُبدّدة عفونة الطبيعة الفاسدة — قصرُ المَلِك السماوي المشيَّد بغير ايدي البشر بناه واقام فيهِ وحدهُ صانع وخالق الارض والسماوات — سحابة منيرة متكوّنة في حِجْر عقيم — نسل إلهي — ابنة الله — ابنة الحياة — حمامة طاهرة — برفيرة لا عيب فيها — عود ممتنع الفساد لا تدنو منهُ أرَضة الخطيئة المفسدة — بدعة الله. خليقة ملائكية

هذه هي اخصُّ النعوت التي بها الآباء القديسون ينعتون العذراء القديسة. وتوجد نعوت أُخرى ايضاً كثيرة جدًّا لو تعمّدنا جمعها للزم كتاب على حدة. وكل من قرأها او سمعها وكانَ خاليَ الغرَض يقرّ دون شكّ بأنها تدلّ دلالةً صريحة واضحةً على ان مريم هي خليقة طاهرة لا عيب فيها ولم يلحقها اصلًا شبه دنس خطيئة او نقص أدبيّ أياً كان

ان القديس دانيس الاسكندري يلقّب العذراء القديسة بكونها « منزلًا لم تصنعهُ الايدي البشرية. وابنة الحياة والابنة المباركة من الرأس الى القدمَيْن وبالفردوس البتوليّ الحاويّ كل ثمين » (في رسالته الى بولس السميساطي واجوبته على اسئلته العشرة)

وثيودوروس من انقرة يُسمّيها: « عذراء تفوق فردوس عدن ولم تُشبه مطلقاً آدم. بتولًا نقية لا لوم ولا عيب فيها مقدسة نفساً وجسماً. سوسنَة بين الاشواك ناجيةً من أهواء حواء » (الميمر السادس عن ام الله وميلاد المسيح. والميمر الاول عن ميلاد المخلص)

والقديس اندراوس الاقريطشي يوضّح رأيه جليًّا في الحبل بمريم بلا دنس ويسميها: « باكورة طبيعتنا وارضاً طاهرة وبلا عيب أخذ منها آدم الجديد جسده ». وإليك نصّ كلامه: « اليوم آدم يُقدّم لله باسمنا الباكورة المختارة من بيننا وهذه الباكورة هي مريم... انّ فادي الجنس البشري الذي كوّن آدم الاوّل متخذًا تراباً

من ارض عذراء وغير ممسوسة اذ اراد الآن ان يستبدل هذا التكوين الاول بتكوين جديد وخليقة جديدة ويُهيّئ لهذه الغاية تجسُّده الذاتي اصطفى من كل الطبيعة هذه العذراء الطاهرة الفائقة النقاوة المأخوذة من بيننا » (في خطبتهِ الاولى عن ميلاد امّ الله)

وللقديس يوحنا الدمشقي كلام اوضح في هذا الشأن : « ان لي قولاً آخر أسمى واعلى شاناً . ان الطبيعة المغلوبة من النعمة وقفت مرتجفةً ولم تجسر ان تدنو . بما ان العذراء امّ الله كانت مزمعة ان تولد من حنّة لم تجسُر الطبيعة ان تتقدَّم نسل النعمة بل استمرّت عقيمة الى ان اتت النعمةُ بثمرتها . ايها المغبوط يواكيم الذي منهُ خرج هذا النسل الفائق الطهر يا حِجر حنة المجيد الذي اعطى للعالم بعد ان تمّت فيهِ تدريجاً وتكونت هذه الابنة الكلية القداسة » (الميمر الاول على ميلاد ام الله)

ونيقيطا البافلاغوني قال « ان حنّة اوقفت فيها مجرى الخطيئة وان مريم خرجت من حِجر امّها كاملة كالبدر في تمّهِ » (في موعظتهِ على ميلاد العذراء)

والمعلم لاون يلقّب الحبل بالعذراء « ثمرة غير مَسقيّة من مَرارة اللعنة بل مُفرّحة النفوس بحلاوة بركاتها » (العظة الثانية على تقدمة امّ الله في الهيكل)

وجيورجيوس النيقوميدي ينعت امّ الله بقولهِ « جميلة بالطبع ناجية من كل لوم ومتزهة عن كل عيب طبيعي » (في الميمر على ميلاد العذراء والميمر على بشارة ام الله)

وفي موضع آخر يقول هكذا على لسان الملائكة مخاطبين العذراء : « ايها الاناء المملوء نعمةً . ايتها الطبيعة الارضية الفائقة بلا شبيه قياس الطبيعة وحدودها . ما اعجب البواكير التي قدّمتها الطبيعة البشرية للواهب لها النماء . وما اعظم التقدمة التي قرّبتها لهُ . هي حقًّا تقدمة لائقة بالله وعجيبة جدًّا تفوق الوصف . اقدس واطهر من طهارتنا . ان برارتنا بالمقابلة مع برارة مريم هي احطُّ جدًّا من ان تشابهها لانها لا تقترب من سموّ قداستها التي بلا عيب والتي تفوق كل وصف » (في ميمره على تقدمة امّ الله)

فاذا كانت طهارة مريم تفوق طهارة الملائكة كما توضح ذلك ايضاً الليتورجية اليونانية مرات عديدة وهم لم يتدنسوا بأدنى خطيئة فيازم القول ان العذراء هي بريئة من الخطيئة الاصلية

والطوباوي يوحنا المهندس يتكلم هكذا عن الحبل الطاهر بالعذراء : « ان الله اختار امرأةً بدل المرأة الاولى . اختار الحياة بدل حواء . وعذراء بدل التي لم تعُد عذراء . وعوضاً عن المرأة التي اضلّها الشيطان امرأةً لم يمكنهُ ان يسطو عليها . . . قبلت الفرح بدل لعنة حواء . وكلمات الملاك بدلاً من خُدَع الشيطان . لم تمسّ الشجرة بل الشجرة مسّتها . شجرة الحياة عوض شجرة معرفة الخير والشرّ » (في عظتهِ على بشارة ام الله) . وفي نشيده الثالث على امّ الله يهتف قائلاً : « السلام عليكَ ايها الجسد المتكوّن في اعالي السماء المتلألئة . ازك جسد تلك التي لم يسرِ اليها شيء من خطيئة البشر » . ومعلومٌ ان خطيئة البشر ليست سوى الخطيئة الاصلية وهذه لم تسرِ الى مريم

وايسيدورس التسالونيقي يقول : « ان محبة الله لمريم هي السبب الاول والوحيد لحديثها مع الملاك . حديث بهِ حبلت العذراء بابنها الالهي وبسبب محبة الله هذه وقدرته نجت مريم وحدها من كلمة النبي وتستطيع ان تقول عن ذاتها ان امّي لم تحبل بي بالآثام ولم تلدني بالخطيئة وهذه النعمة هي من جملة العظائم التي صنعها بي القدير » (في ميمره على تقدمة ام الله) . فايُّ كلام ادلّ من هذا على براءة مريم العذراء من الخطيئة الاصلية التي تعمّ سائر اولاد آدم

— شهادات آباء الكنيسة الغربية —

واذا انتقلنا الى آباء الكنيسة اللاتينية وجدنا كثيرين يشهدون بحقيقة الحبل بلا دنس في مقدمتهم القديس اغسطينوس المأثورة عنهُ هذه الكلمات « اني استثني العذراء القديسة مريم وتعظيماً لله تعالى لا اريد ان يُعنَى بها اصلاً متى كان الكلام على الخطيئة » (في كتابهِ عن الطبيعة والنعمة الفصل ٣٦)

ومنهم القديس امبروسيوس وهو يعترف ايضاً ان « العذراء هي نقية بالنعمة من كل وصمة خطيئة » (تفسير المزمور ١١٨ العظة ٢٢)

ويقول القديس مكسيموس التوريني « ان مريم كانت مسكناً اهلاً للمسيح لا باستعدادات الجسد بل بالنعمة الاصلية » (الميمر الخامس قبل ميلاد الرب)

والقديس ايلدفنسوس الطُّلَيْطلي يقول « ان الطوباوية مريم نبتت كفرع مقدس من جرثومة الطبيعة البشرية الفاسدة » (في عظتهِ على مريم)

والشاعر سيدوليوس الذي كان في القرن الخامس يترنم بمديح مريم قائلاً: « وكما ان الوردة الغضَّة تنبت من الاشواك الحادَّة ليس فيها ما يجرح وبجمالها تكسف اصلها. هكذا مريم الطاهرة جاءت من نسل حواء فكفَّرت العذراء الجديدة عن جريمة العذراء القديمة » (في قصيدتهِ الفصحية)

وبولس البرنفريدي شماس كنيسة اكويلا في اواخر القرن الثامن يشهد هو ايضاً بأن « العذراء لم تُصَب بالسمّ الذي بهِ الحية أفسدت الطبيعة البشرية وانَّ الله لهذا السبب اختارها ليعطي بها فرح الخلاص للجنس البشري» (في نشيد نياحة العذراء مريم)

ويقول القديس بسكازيوس رَدْبرتوس « من المحقَّق ان العذراء مريم نُزّهت بالتمام عن الخطيئة الاصلية » (في ميلاد البتول)

وهذا تعليم الكنيستين اللاتينية واليونانية قد تمسكت بهِ سائر الكنائس الشرقية. فغريغوريوس النار كتسي المؤلف الارمني الشهير الذي عاش في القرن العاشر يسمّي مريم « الابنة المنزهة عن الخطيئة ابنة حواء الخاطئة. الابنة البريئة من جرثومة الخطيئة ومن لعنة الجنس البشري ». وجرجس ورتنس الارمني الذي عاش في القرن الثالث عشر يقول عن مريم « انها مُنزَّهة عن إثم حواء » (راجع الكردينال ماي في مكتبة الآباء الجديدة المجلد ١ الصفحة ٤٥٢)

وكذلك جرجس ورده الشاعر النسطوري الذي كان في اوائل القرن الثالث عشر. ومثلهُ العلامة يوحنا الموصلي الراهب النسطوري يقول في كتابهِ المرشد الروحي صفحة ٢٥٢ و٢٥٧: « من يقدر ان يتصوَّر في عقلهِ ويَصِف بلسانهِ هذه الطاهرة العفيفة المقدسة المبرَّرة العذراء الخفية الدائمة بتوليتها التي تبررت منذ الحبل بها وتقدَّست من البطن »

ونقتصر الآن على هذا النزر من اقوال آباء ومعلمي الكنيسة الكاثوليكية وبعض المشاهير من الكنائس المنفصلة ضاربين صفحاً عن ايراد شهادات العلماء الذين كانوا في اقرب القرون الينا لانها اكثر من ان تحصى حتى ان الكردينال كايتانوس الذي توفي في سنة ١٥٣٤ وكان من عداد الذي يقاومون عقيدة الحبل بلا دنس يقرُّ « ان العلماء الذين يعلّمون في عصرنا ان العذراء المغبوطة هي بريئة من الخطيئة الاصلية لا يفي بهم احصاء » (في الحبل بلا دنس الفصل الخامس)

وكذلك العلامة سمعان ستتااغاتا في اواخر القرن السادس عشر عدّد ستة آلاف من العلماء القائلين بالحبل بلا دنس

أفيسوغ بعد هذه الحجج والبيّنات الادعاء بان «الكنيسة البابوية قد استحدثت في ذلك معتقداً جديداً وحكمت من مدّة لا تزيد عن اربعين سنة بوجوب الاعتقاد بمعتقد جديد ألا وهو الحبل بالعذراء مريم والدة الاله بلا دنس. مع ان الكنيسة القديمة ما عرفت ابداً هذا المعتقد » (كما ورد في منشور انتيموس٧). اما كان احرى بكلّ مُتنوِّر ان يُحيط علماً باقوال الآباء والعلماء ويذعن للحقيقة معترفاً بان عقيدة الحبل بالعذراء بلا دنس هي عقيدة عمومية اعترفت بها الكنيسة الشرقية والغربية منذ القديم وان الحبر الروماني لمَّا حدّدها عقيدةً لم يُحدِث أمراً جديداً بل شرح الرأي القديم وألزم المسيحيين اعتقاده. ولنضرب لذلك مثالاً:

ان انتقال العذراء عليها السلام بالنفس والجسد الى السماء هو قضيَّة مسلَّم بها عند الكاثوليك والروم الارثوذكس معاً. وكلتا الكنيستين الغربية والشرقية تقيمان لهُ عيداً عظيماً. ومع ذلك فان الكنيسة حتى الآن لم تحددها بسلطتها عقيدةً ايمانية. فلو افترضنا انهُ قام البعض وانكروها في مستقبل الزمان ورأت الكنيسة وجوب تحديدها وإلزام الاعتقاد بها فحدَّدتها أفيجوز القول وقتئذٍ ان الكنيسة احدثت معتقداً جديداً. لا لعمري. فهكذا اذاً لا يجوز ان يقال ان الكنيسة بتحديدها عقيدة الحبل بلا دنس احدثت معتقداً جديداً

واذا قيل انهُ وجد من علماء الكاثوليك من قاوموا هذا المعتقد فنجيب (اولاً) ان مقاومتهم هي دليل على انهُ في ذلك العصر كان من يتمسَّك بهِ ويحامي عنهُ. (ثانياً) ان الكنيسة لم تكن حدَّدت بعد هذه القضية كما فعلت في هذا العصر وعليهِ لم يكن يُحسب المقاوم اذ ذاك هرطوقيًّا. اما الآن فقد حكمت الكنيسة عَمُودُ الحق فأذعن لها العالم الكاثوليكي اجمع وصار يُحسَب هرطوقياً كل من يخالف حكمها. (ثالثاً) ان الذين قاوموا هذه الحقيقة كان عددهم يسيراً جدًّا بالمقابلة الى عدد الذين تمسكوا بها. وقد مرّ القول ان العلماء الذين كتبوا للمدافعة عنها يُعدّون بالالوف بل لا يُحصَون. ثم ان مُعظَم كليَّات اوربة لم تكن تُعطِي احدًا شهادة الملفنة ما لم يُقسِم قبلاً بالمدافعة عن هذه الحقيقة. فيا ليت شعري كيف تكون حديثة

٥

في شهادات الليتورجية اليونانية على قِدَم هذا المعتقد

هلمَّ الآن نبحث في كتب الليتورجية لنرى هل تتضمَّن شهاداتٍ واضحة على ان الكنيسة اعترفت بهذه العقيدة منذ القديم أم لا . ولا يخفى ان شهادات هذه الكتب هي حُجج قاطعة لانها تشتمل على العقائد التي كانت تعتقدها الكنيسة منذ بدئها

ونظرًا لضيق المقام لم يتسنَّ لنا الَّا مطالعة نحو مئتي صفحة من الجزء الاول من مناون الروم الارثوذكس المطبوع في بيروت سنة ١٨٨٢ بأمر غبطة البطريرك كيريوس ايارونيوس . فوجدنا في القليل الذي طالعناه عبارات عديدة نسرد بعضاً منها للقرّاء مع تعيين الصفحات التي وردَت فيها ليتمكَّنوا من مراجعتها لدى الحاجة ويحكموا بانصاف

فكنيسة الروم في صلوات المناون تنعت العذراء هكذا:

مباركة دائماً (الصفحة ٤) كلية الطهارة (٥) كلية النقاوة (٣٢) الفائقة العجب (٦) باباً بهِ جدَّد الله طينة البشر (١٣) تنقض بمولدها لعنة آدم التي علينا (٢٠) النقية الكلية القداسة (٢١) بريئة من جميع العيوب (٢١) بريئة من كل العيوب (٩٦) بريئة من كل عيب (١٠٦) عوسجة غير مُحترِقة (٢١) لاجل طهارتها الفائقة تصير هيكلاً لله حيًّا (٢١) قُوَّات السماء تهتف . . . يا كليَّة الطهارة وحدكِ (٢٢) بها وُطِئت الجحيم الهائلة (٢٢) قد فاقت بهاء على كل مولود كما يليق بالله (٢٤) بها أُعيدت جبلتنا نحن الارضيين وتجددنا من الفساد الى حياة خالدة (٢٤) لنا نحن الذين بالمخالفة قديماً اغلقنا الفردوس قد أُعطي ثمر كلّي النضارة (٢٥) امّ الحياة التي هي إعادة جبلة آدم ودعوةِ حوّاء ينبوع عدم الفساد والعتق من الفساد (٢٥) إناء للطهارة (٢٥) إضمحلال اللعنة (٢٥) التي بلا عيب (٢٥) التي هي أعلى من الشاروبيم (٢٨) يا من هي اكرم من الشاروبيم (٢٩) تَنقُض بمولِدِها لعنة آدم التي علينا (٣٢) التي نفت لعنة حواء (٣٣) التي هي اقدس من الخليقة (٣٣) ظهرت للبشر حالَّة لجميعهم قيودَ الخطيئة (٣٥) سماء جديدة (٣٧) نجاة آدم وحواء من اللعنة (٤٠) نجاة آدم عِتق

حواء (١٠٠) الفتاة البريئة من الفساد (٧٠) قد بسطكِ سماء اخرى على الارض (٨١) أسرارُكِ كلّها يا والدة الله تفوق كل عقل (٧٨) لقد وُجدتِ فلق صُبحٍ في ليل الحياة (٨٢) مجد الملائكة (١٢١) انتِ وحدكِ صالحة (١٣٥) ان الكلمة الختن لما وجدكِ فيما بين الاشواك كسوسنَّة طاهرة كلية النقاوة (١٣٧) ان الجالس مع الآب منذ الازل قد اتَّهلكِ لان يتكنّ في احضانكِ (١٧٠) فائقة القداسة اكرم من الشاروبيم المَجيدين وامجد بدون قياس من السارافيم واقدس من جميع الملائكة القديسين (١٧٣) ايتها البتول البريئة من كل عيب انهُ ليس فيكِ وصمة ولا دنس البتة بل بالاولى ظهرتِ خزانة للفضائل السماوية لان فيكِ حلَّت قداسة الفضائل كلّها (١٨٥) ان العدوّ الشديد الغشّ والكلّي المَكر الذي حسدني في الفردوس ونفاني من عدن ومن الحياة الالهية السعيدة يُباد بمولدكِ ايتها البتول (١٩٧) التي هي وحدها مباركة نقيّة (٢٠٤) لقد انطلقتِ بعد ولادتكِ الى هيكل الرب لِتتربّي في قدس الاقداس بما انكِ مقدَّسة (٢٠٥) السماء العقلية البتول البريئة وحدها من العيوب (٢٠٥) ايتها النقيَّة لقد تقدستِ لله قبل الحبل بكِ (٢٠٦) قد بدا منهما مولود مقدس وهو مريم المشكاة الالهية الحاملة النور (٢٠٦) ان التي بدَت منها المعصية قديماً وسرَت في الجنس البشري قد ازهر منها التقويم وعدم الفساد بوالدة الاله المقدَّمة اليوم الى بيت الله (٢٠٨) مقدِّمَينِ للرب المولودة منكما . . . عفيفة بريئة من كل عيب (٢٠٨) دخلتِ الى داخل هيكل الله كهيكل كلّي النقاوة . . وُضِعتِ في هيكل الله مُحرَقة طاهرة وقُدساً مجيداً (٢٠٩) ايتها الكلّية الطهارة لان ولادتكِ غريبة وطريقة نموّكِ بديعة وكل احوالكِ باهرة مُستغرَبة غامضة الوصف لدى البشر (٢٠٩) ان الرب . . . اتخذ الآن من البشر . . . علامة المصالحة وتجديد الجبلة (٢١٠) الطاهرة ظهرت وحدها مختارة بما يسمو كلَّ الخليقة المنظورة والمعقولة (٢١٠) يا والدة الاله بما انكِ تابوت متنفِّس لله فلا تلمسكِ يدٌ مدنَّسة (٢١٢) انَّ لكِ جسداً يفوق الوصف غير قابل سَريان الخطيئة (٢١٢) افرحي يا امَّ الاله البريئة من كل العيوب يا من بها نجونا من اللعنة القديمة (٢١٣) اليوم القداسة الكلية الطهر تدخل الى قُدس الاقداس كعجلة ذات ثلاث سنين (٢١٤)

فيا ليتَ شِعري كيف يمكن ان توصف العذراء القديسة بانها كلّية الطهارة وحدها وانها بريئة من كل العيوب وانها تنقض لعنة آدم وأنَّ بها أُعيدت جبلتنا

فلماذا نُلام على ايماننا بالحبل بمريم بلا دنس . أفنعامَل بلا انصاف لمجرّد كوننا كاثوليكيين

« انني قد حملتُ في بطني السماء الجديدة . » « حبلتُ بالنقيّة وحدها » . « ايتها البتول والدة الاله المظلّة التي لا دنس فيها طهّريني الآن بقطرات تحتنكِ يا كلية الطهارة انا المُتدنّس بالزلات » . « ان حنة . . . اخذت الآن تُفرِع العصا الالهية التي ستُخرِج الزهرة السرّية اعني المسيح » (٢٦٩ و ٢٧٠)

« ان حنة قد حملت في بطنها الحمامة النقية » (٢٧٠) فكانت اذًا مريم نقية من الخطيئة لما حملتها حنة في بطنها . واي خطيئة كانت ممكنة ان تدنّسها وقتئذٍ الّا الخطيئة الاصلية . وعليهِ فقد كانت نقيّة منها

« قنداق للقديسة حنة . اليوم تُعيّد المسكونة لحبل حنة الذي هو من الله » « يا حنة لقد سُرع يُنسَج في جوفكِ برفيرة ملوكية » « يا حنة لقد حملتِ في جوفك العُطر الذكيّ العَرف » (٢٧٠) وهل يمكن ان يكون ذكي العرف لو كان منتناً بالخطيئة الاصلية . أَو يكون الحبل بمريم من الله لو كانت نفسها ميّتة بالخطيئة الاصلية

« ان الارض التي سكنتها خالق الارض . الصولجان المقدس التابوت الجديد جرّة المنّ قد اخذت تنمو في حشا الأُمّ التي ولدتها . ان العُلّيقة الغير المُحترِقة . المنارة الذهبية . الخِدر المتنفّس للرب الاله . القضيب المكرّم قد اخذت تتفرّع في حشا الأُمّ التي ولدتها » (٢٧١)

« يا حنة المتألهة العزم بما انكِ حبلتِ بالينبوع المتقبّل الحياة فعُودي الآن الى الفرح متقبلةً داخل حشاك الهيكل المقدس » (٢٧١) أفيكون حبلًا بينبوع متقبل الحياة لو كان متقبلًا موت الخطيئة الاصلية . أو يكون هيكلًا مقدّساً في حشا حنة لو كانت مريم (والعياذ بالله) مسكن الشيطان بالخطيئة الاصلية

بناء عليهِ ندعو اخوتنا الروم الارثوذكس ان يراجعوا باستقامة صلوات عيد حبل حنة بكاملها فيستنشقون منها عَرف هذه العقيدة وهي ان مريم حُبل بها بلا دنس الخطيئة الاصلية

الختام

اننا في ختام هذه المقالة الوجيزة نطلب بالحاح الى اخوتنا الروم الارثوذكس الذين يكرّمون العذراء ويبجّلونها بما يفوق الوصف في ليتورجيتهم ان لا يضنّوا على امّ الله بلقبِ مُسطّرٍ في كل صفحة من كتب صلواتهم وان لا ينكروا على مريم البتول عطيّة وهبها اياها القادر على كل شيء الذي اصطفاها من بين كل الانام عروساً كلية البهاء وهيكلًا مُقدّساً وأُمًا للابن المتجسد . افيحسبون استثناء مفرطاً ان الله اعفى من بغضهِ وغضبهِ والخطيئة الاصلية ومن تسلّط الشيطان تلك التي اراد ان يتّخذ منها جسداً كلّي القداسة والتي منحها نعماً تفوق الوصف وتتمّم فيها مُعجزات لا يُدرِك سموّها العقل البشري مثل ان تكون مخلوقةً وامّ الله . واماً وعذراء معاً . وان تحبل بيسوع بمجرّد قوّة الروح القدس . وان تبقى عذراء قبل الولادة وفي الولادة وبعد الولادة . وان تُنقَل الى السماء بعد نياحتها بالنفس والجسد . فمن يا ترى يستعظم بعد ذلك ويستصعب ان يكون الله عصمها من الخطيئة الاصلية بل من لا يستغرب انّ الله بعد ان منحها تلك الامتيازات والمواهب السامية الفريدة لا يكون عصمها من الخطيئة الاصلية ؟

فكما ان البوق الانجيلي للروم الارثوذكس في عظة نياح العذراء (جزء ٢ صفحة ١٣٣) يبرهن على عظمة الاحتفال الذي جرى لها في السماء مما سبق الله واختصّها بهِ من العظائم وهي على الارض . هكذا نحن يمكننا ان نبرهن من تلك العظائم نفسها ان الله عصمها من الخطيئة الجدّية . واليك نص البوق الانجيلي :

« انها (اي مريم) صورة الكمال والفضيلة والقداسة نفسها وحانوت عجائب الله تعالى الذي فيهِ اوضح عزّ وجلّ لجة المحبة غير المُدركة التي عنده لنحو الانسان واظهر بحر حكمته الزاخر الذي لا قرار لهُ لانهُ استطاع ان يعمل ما يفوق على القياسات الطبيعية ودقّة الحكمة البشرية . وأبانَ قدرته الكلّية في هذا الفردوس العقلي لانهُ قد اوضح فيهِ ان الله تعالى قادر ان يخترع إبداع عالم آخر جديد إبداعاً سِرّياً وعجيباً اكثر من الابداع الذي صنعه في الفردوس الحسّي . فاذًا ايُّ امر مُستغرَب يظهر لك ايها الانسان ان كان ابن الله قد ارتضى ان يأتي الى الارض ليقتبل في احضانه

اذا لم يكن خميرًا لا يتحوّل الى جسد الرب (١

امّا اللاتين وان استعملوا الفطير وفضّلوه (٢ فقد علّموا وما زالوا يعلّمون مع السواد الاعظم من الشرقيين ان الفطير والخمير هما مادّة صحيحة للاوخارستيا على حدّ سواء لانّ كليهما خبز حقيقي (٣ وكان استعمالهما جائزًا في القرون الاولى للنصرانية جريًا على احوال كلّ بلدٍ على ما أَلِفَهُ الأَهلون من العادات كما يتّضح ذلك مما سنوردهُ امّا بعد الانفصال فلمّا حمي الخصام بين الفريقين ورُشق اللاتين بسهام الملامة على استعمال الفطير (٤ سنّ الاحبار الرومانيون شريعة أَلزموا بها ان يقدّس او يتقرّب كلّ

١) راجع الفصل العاشر من تأديبات الكنيسة الشرقية ولكن ليس الجميع يقولون بهذا التعليم. فانّ كثيرًا من اليونان مع ادعائهم بان استعمال الخمير هو اقرب لمادة الكنائس الاولى لا ينكرون كون الفطير يصلح كالخمير لتتميم سرّ الاوخارستيا

٢) وكذلك يصنع اللوترانيون فانّهم في عشائهم السرّي يستعملون عادةً الفطير. الّا انهُ يجوز عندهم استعمال الخبز فطيرًا كان او خميرًا. وهذا هو ايضًا تعليم تيودور دي بيز. امّا في جنيف فانّهم فضّلوا الخمير سنين عديدة الى ان جرت بينهم مباحثات ومخاصمات ادّت بهم الى إعادة الفطير. واكثر الكلوينيين في ايامنا يعوّلون على الخبز العمومي الاعتيادي اي المختمر

٣) زعم البعض ان اللفظة اليونانية αρτος التي عبّر بها الانجيليون عن الخبز لا تطلق الّا على المختمر منهُ. لكن هذا الزعم مردود من عدّة أوجه اخصُّها: (١ ان الكتاب الكريم يُطلق أيضًا هذه اللفظة على الفطير. ففي سفر الاحبار (٢ : ٤ و٥) يذكر ان التقدمة تكون فطيرًا وينعتهُ بمخبوز αρτους αζυμους ويشير اليهِ القدبس متى فيسمّيه خبزًا على الاطلاق τους αρτους της προθεσεως « خبز التقدمة » (متّى ١٢ : ٤). ومعلوم ان خبز التقدمة كان كلهُ فطيرًا كما يشهد بذلك سفر الاحبار (٢ : ١١): « جميع التقادم التي تقرّبونها للرب لا تُعمل بخمير ». (٢ لمّا اتكأ المسيح مع التلميذين في عماوس (لوقا ٢٤ : ٣٠) يخبر الانجيلي أنهُ « اخذ خبزًا وبارك وكسر وناولهما » ويعبّر عن هذا الخبز باللفظة اليونانية αρτος وليس من احد ينكر ان هذا الخبز كان فطيرًا لأنها كانت ايام الفصح عند اليهود. (٣ كل الشعوب قديمة كانت ام حديثة اعتبرت الفطير خبزًا حقيقيًا كالخمير واطلقت عليهِ لفظة خبز. وعرب البادية الذين لا يقتاتون في الغالب الّا بالفطير يسمونهُ بلا خلاف خبزًا. ويقال عن لوط لما أتاه الملاكان انهُ « صنع لهما مأدبةً وخبز فطيرًا فاكلا » (تكوين ١٩ : ٣)

٤) انفذ سنة ١٠٥٣ ميخائيل كرولاريوس بطريرك القسطنطينية ولاون رئيس اساقفة أخريدة في مقدونية رسالةً الى يوحنا اسقف تراني وطلبا اليهِ ان يبلّغها الى البابا لاون التاسع والى جميع كنائس الغرب. واقوى شكوى تضمّنتها هذه الرسالة هي عادة اللاتين ان يقدّسوا الفطير في الذبيحة الالهية. ثم ان كرولاريوس دون ان ينتظر الجواب عمد الى كنائس وأديرة اللاتين في القسطنطينية فاقفلها لأنها لم تخضع لمطالبهِ في تبديل الفطير بالخمير

بحسب طقسهِ (١ الّا في بعض ظروف بيّنوها بالتفصيل (٢. وانّما وضعوا تلك الشريعة تلافيًا للخصومات وبيانًا لاعتقاد الكنيسة مصرّحين بذلك ان كلتا العادتين محمودة وكلتا المادّتين مقبولة تصلح لتتميم سرّ الاوخارستيا

***

هلمّ الآن نبحث عن استعمال الكنائس الغربية للفطير وعن بدئهِ واسبابهِ. فنقول انّ الكنيسة الرومانية تقدس الفطير اقتداءً بما عمل السيد المسيح وجريًا على عادةٍ قديمة ترتقي الى عهد الرسل

انّهُ لأمرٌ مقرر ان المسيح لم يستعمل في رسم الاوخارستيا الّا الفطير لانهُ رسمهُ عندما اكل الفصح مع تلاميذهِ وكان محتومًا الا يوجد اذ ذاك في البيوت سوى الفطير. وقد ورد في سفر الخروج (١٢ : ٢٠): « لا تأكلوا شيئًا من المختمر بل في جميع مساكنكم تأكلون فطيرًا ». وفيهِ ايضًا: « سبعة ايّام تاكلون فطيرًا. في اليوم الاوّل تُخلُون منازلكم من الخمير ... في الشهر الاوّل في اليوم الرابع عشر منهُ بالعشيّ كلوا فطيرًا الى اليوم الحادي والعشرين من الشهر بالعشيّ. سبعة ايام لا يوجد خمير في بيوتكم فان كلّ من اكل خميرًا تنقرض تلك النفس من جماعة اسرائيل » (خروج ١٢ : ١٥ و١٨ و١٩). وجاء في محلٍّ آخر (احبار ٢٣ : ٥ و٦) (٣ « في الشهر

١) ان الكنيسة اللاتينية تظنّم بهذا المقدار الطقوس الشرقية حتى ان البابا يناول الشمامسة اللاتين دون اليونان عند ما يقدم الذبيحة الالهية في بعض الاحتفالات الحبرية ويخدمهُ فيها فضلًا عن جمهور الكرادلة اكليروس من الطقس اليوناني يقرأون الانجيل بلغتهم ويتناولون على طقسهم وذلك رغبةً في المحافظة على الطقوس

٢) سمح البابا لاون التاسع للكاهن اللاتيني ان يقدس الخمير اذا وجد في الشرق بين ظهرانَيْ قوم يقدسون الخمير ولم يكن هنالك كنيسة يُستعمل فيها الفطير. وكذلك سمح للكاهن ذي طقس الخمير ان يقدس الفطير اذا وجد في الغرب ولم توجد كنيسة يُقدَّس فيها الخمير (مجموعة رسائله ك ١ ف ٢٩). وقد سنّ البابا لاون الثالث عشر شريعة تأذن بمغايرة الطقس فيما يختصّ بالمناولة في بعض الظروف وقد بيّنّا هذه الظروف بالتفصيل مرارًا في جريدتنا البشير. وهذه الشريعة هي استئناف لبعض عادات كانت تجري الكنيسة بمقتضاها قديمًا وقد ثبّتها ووسّعها البابا بيوس العاشر تسهيلًا للمناولة المتواترة واليومية

٣) معنى الفصح الاجتياز والعبور اشارةً الى ما صنعهُ الربّ لما اجتاز بيوت الاسرائيليين في ارض مصر ولم يصب ابكارهم بأذًى: « اذا قال لكم بنوكم ما هذه العبادة لكم فقولوا هي ذبيحة فصح للرب الذي عبر عن بيوت بني اسرائيل بمصر اذ ضرب المصريين وخلّص بيوتنا »

الاوّل في الرابع عشر منهُ بين الغَرُوبَيْن فصح للربّ . وفي اليوم الخامس عشر من هذا الشهر عيد الفطير للربّ سبعة ايّام تاكلون فطيرًا »

ولا ريب في ان المسيح اكل الفصح في اليوم الاول من الفطير كما تأمر الشريعة . ويتّضح ذلك من آيات الانجيل الطاهر في قول متى (٢٦ : ١٧) : « وفي اول يوم من الفطير دنا التلاميذ الى يسوع قائلين أين تريد ان نعدّ لك الفصح لتأكل » وقال مرقس (١٤ : ١٢) باوفر ايضاح : « في اول يوم من الفطير اذ كانوا يذبحون الفصح قال لهُ التلاميذ اين تريد ان نمضي ونعدّ لتأكل الفصح » . ومثلُهُ لوقا (٢٢ : ٨,٧) : « وبلغ يوم الفطير الذي كان ينبغي ان يُذبح فيهِ الفصح فارسل بطرس ويوحنا قائلًا امضيا فاعدّا لنا الفصح لنأكل » . وكفى بهذه الآيات برهاناً لدَحض آراء من زعموا انّ المسيح لعلمهِ بدنوّ موتهِ سبق فعجّل اكل الفصح . فانّ الانجيل يذكر انّ اليوم الذي اكل فيهِ المسيح الفصح كان اوّل يوم من سبعة ايّام الفطير وانّ اليهود كانوا يذبحون فيهِ الفصح . ولا يشير الى قصدٍ خصوصي للمسيح بل الى العادة العمومية والشريعة المحتوم على الجميع تتميمها . ثمّ ان التلاميذ الذين لم يكونوا ليعلموا او يفهموا امر موت سيدهم هم الذين استلفتوا انظاره الى حفظ الوصيّة واكلِ الفصح وفقاً للشريعة . ولا مِراء انهم طلبوا اليهِ اتباعها وتتميمها في اليوم المعيَّن في الناموس (مرقس ١٤ : ١٢)

ثمّ ان المسيح كان ذكّر الرسل بدنوّ العيد اذ قال لهم : « تعلمون انّهُ بعد يومين يكون الفصح وابن البشر يُسلَم للصلب » (متى ٢٦ : ٢) « وكان الفصح والفطير بعد يومين » (مرقس ١٤ : ١) . « وقرُب عيد الفطير المسمى الفصح » (لوقا ٢٢ : ١) . وهذا دليل آخر على ان المخلص كان عزم على اكل الفصح في وقتهِ

ويجدر بالملاحظة ما اوردهُ الانجيليون فقالوا : « ولما كان المساء اتكأ مع تلاميذه » (متى ٢٦ : ٢٠ ومرقس ١٤ : ١٧) وزاد لوقا ايضاحاً فقال : « ولما كانت الساعة اتكأ

(خروج ١٢ : ٢٦ و٢٧) . واما عيد الفطير فقد رُسم تذكارًا لما حدث للاسرائيليين عند خروجهم من مصر على ما اخبر الكتاب المقدس اذ قال : « حمل الشعب عجينهم قبل ان يختمر . . . فاختبزوا العجين الذي خرجوا بهِ من مصر مليلًا فطيرًا اذ لم يكن قد اختمر لانّهم طُردوا من مصر ولم يقدروا ان يتلبّثوا حتى انهم لم يصنعوا لهم زادًا » (خروج ١٢ : ٣٤ و٣٩)

هو والرسل » (لوقا ٢٢ : ١٤) . وفي تعيين الانجيليّين لليومِ ولساعةِ المساء اشارة بيّنة الى ما امر بهِ الله في سفر الخروج (١٢ : ١٨) : « في الرابع عشر منهُ بالعشيّ كلوا فطيرًا » وقال ايضاً (خروج ١٢ : ٥—١٠) : « حملٌ صحيح . . . ويكون عندكم محفوظاً الى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر فيذبحهُ كل جمهور جماعة اسرائيل بين الغروبين . . . ويأكلون لحمهُ في تلك الليلة شواءً نارٍ بفطير . . . ولا تبقوا شيئاً منهُ الى الغداة » . وفي سفر الاحبار (٢٣ : ٥) : « في الرابع عشر منهُ بين الغروبين فصح للرب » . فمن اسلوب الكلام الذي ذكر بهِ الانجيليون اكل المسيح للفصح يُستنتج برهان قاطع على ان المخلص اكلهُ في اليوم المأمور بهِ والساعة المعينة في الشريعة . لانهُ كان يحافظ كلّ المحافظة على القيام بهذه السُّنّة . ولو افترض انهُ لم يجرِ بحسب الوصية على النوع والوقت اللذين رتبهما الله لَما كان اعداء المسيح سكتوا عن هذه المخالفة الصريحة بل كانوا اضافوها الى الشكاوي التي احتجّوا بها عليه زورًا

ولا حاجة الى القول بان كثيرين من الآباء القديسين علّموا بان المسيح تمم الفصح الشرعي كما كان واجباً . فيكفي ايراد شهادة اثنين منهم . قال يوحنا الذهبي الفم . (في الميمر ٨٤ وفي بعض النسخ ٨٥ العدد ٢ في تفسير انجيل متى) : « ان المسيح لم يتعدَّ وصية وقت الفصح » (١ . وقال القديس ابيفانيوس « ان المسيح انفرد في الجبل بعد ان اكل الفِصح . . . وقد تمم فصح اليهود مع تلاميذه ولم يغيّر شيئاً فيهِ بل تمّمهُ بالتدقيق كاليهود لانهُ لم يأتِ لينقض الشريعة بل ليكملها » (٢ . وقال فوتيوس في الفصل ١١٦ من مكتبته الشهيرة . « ان المسيح تمّم الفصح الشرعي » (٣ . وعليهِ فيكون السيد المسيح قد استعمل الفطير كما تأمر الشريعة

هذه هي اخصّ البراهين التي تثبت ان المسيح اكل الفصح في اليوم المعين في الشّريعة وانهُ اكله مع الفطير كما يؤمر فيها . فبكل صواب اذًا نستنتج ان السيّد لهُ المجد قدّس الفطير لانهُ لم يكن بين يديهِ اذ ذاك الّا هذا الخبز

ولكن اذا طالعنا ما كتبهُ يوحنا في انجيلهِ في معرض كلامهِ عن الفصح وعن

---

١) « ου γαρ αν ο Χριστος παρεβη τον καιρον του πασχα »

٢) في كتاب الهرطقات الهرطقة ٥١ العدد ٢٧

٣) « ο Χριστος το νομικον επετελει πασχα »

آلام المسيح تقوم امامنا صعوبات ليست بيسيرة وتعترضنا مشاكل عسرة نبسطها كما هي ونلحقها بما نراه احقّ او اقرب الى الصواب

امّا الآيات التي وردت في انجيل يوحنا ويظهر منها ان المسيح لم يأكل الفصح مع جمهور اليهود فهي هذه : « قبل عيد الفصح لما كان يسوع يعلم ان ساعته قد اتت . . . فحين كان العشاء . . . » (١٣ : ١ و٢) . وقولهُ : « ولم يدخلوا الى دار الولاية لئلّا يتنجسوا فيمتنعوا عن اكل الفصح » (١٨ : ٢٨) . وقولهُ ايضاً : « وكانت تهيئة الفصح وكان نحو الساعة السادسة » (١٩ : ١٤) . وفي الفصل ذاتهِ : « اذ كان يوم التهيئة فلئلّا تبقى الاجساد على الصليب في السبت لان يوم ذلك السبت كان عظيماً » (١٩ : ٣١) الى ان قال : « فوضعا يسوع هناك لاجل تهيئة اليهود » (١٩ : ٤٢) . فيظهر من هذه الآيات كلها ان عيد الفصح وقع تلك السنة يوم السبت لا يوم الجمعة وعليهِ كان واجباً اكل الحمل الفصحي مساء الجمعة لا مساء الخميس . والحال انّ المسيح اكل الفصح مساء الخميس ولم تكن ايام الفطير قد ابتدأت . فليس اذًا برهان قطعيّ على ان المسيح قدّس الفطير

فلحلّ هذا المشكل نقول انّ لليهود في حساب الايام طريقتين حساب طبيعيّ وحساب شرعيّ . فالطبيعيّ يتبع اليوم الطبيعيّ من نصف الليل الى نصفهِ . والشّرعي او العيدي حدُّه من الغروب الى الغروب . فالانجيليّون متّى ومرقس ولوقا اذ يتكلمون عن اول يوم من الفطير يراعون اليوم الشرعيّ الذي وقوعهُ يوم الجمعة ١٥ نيسان وبدؤهُ مساء الخميس ١٤ نيسان . وعليهِ فقد كان بدء الفصح مساء الخميس وفيهِ اكلوا الفطير . امّا القديس يوحنا الذي كتب انجيلهُ لاجل اليونان خاصّةً [١] فانهُ يراعي في حساب الأيام عادة اليونان والرومانيين الذين كانوا يبدأون اليوم من نصف الليل . فبقولهِ « قبل عيد الفصح » يعني ليلة العيد . فكأنهُ قال : مساء الخميس قبل يوم الجمعة الذي كان فيهِ عيد فصح اليهود . ويؤيد هذا التفسير ما ذكرهُ يوحنا في الموضع نفسهِ .

١) كتب يوحنا هذه الامور بعد ان مضى عليها ما ينيف على ستين سنة . وفي انجيلهِ ما يدلّ على انهُ يكتب لأمم لم يألفوا عادات اليهود . ولذلك كثيرًا ما تراه يفسّر لهم احوال العبرانيين وينقل ألفاظ لغتهم الى اليونانية ويصف الامكنة الوارد ذكرها . الى غير ذلك من الادلّة التي تبين مراعاتهُ لامور الامم التي يبشرها

فانهُ اردف كلامه « قبل عيد الفصح » بهذه الآية : « فحين كان العشاء » يريد العشاء المعهود والمشهور . فعبارة يوحنا ترادف قولنا : مساء الخميس الواقع قبل عيد الفصح وقت العشاء الفصحي اتكأ يسوع مع تلاميذهِ ليأكل معهم الفصح . ومن هنا يتّضح ان القديس يوحنا بقولهِ « قبل عيد الفصح » لا ينفي وقوع عيد الفصح في يوم الجمعة ١٥ نيسان

ولكن ما الجواب على الاعتراض المبني على قول يوحنا انّ يوم موت المسيح كان « يوم التهيئة » و « تهيئة الفصح » وان اليهود « لم يدخلوا دار الولاية لئلّا يتنجسوا فيمتنعوا عن اكل الفصح » . فهذه الآيات تدلُّ صريحاً على ان اليهود ضُحى نهار الجمعة لم يكونوا بعد قد اكلوا الفصح وانهم كانوا يتهيّأون ليأكلوه مساء ذلك النهار

لقد اشكل قول يوحنا على كثيرين من الآباء والعلماء وحاول المفسّرون حلّهُ وتعددت الآراء فيهِ . فقال بعضهم انّ اليهود أخّروا تلك السنة عيد الفصح الى يوم السبت . ولكن لم يُسندوا قولهم هذا الى برهان . وقال آخرون : انّ اليهود بعد ضمّ الجليل الى اليهوديّة ونموّ عددهم تعذّر عليهم ذبح الحُملان كلّها في الهيكل ليلة العيد [١] فانقسموا الى قسمين فكان الجليليون يأكلون الفصح مساء الثالث عشر من نيسان وسائر اليهود من سكان اورشليم واليهودية يأكلونهُ مساء الرابع عشر . لكن رواة هذه العادة لم يثبتوها بشهادات بيّنة

ومما قيل في حلّ المشكل انّ المسيح لعلمهِ بموتهِ يوم الجمعة قدّم اكل الفصح الى مساء الثالث عشر . ولكن هذا الرأي يضادّ قول الانجيليين ان المسيح اكل الفصح في اوّل يوم من الفطير . وقيل أيضاً انّ اليهود كانوا يأكلون الفصح في ليلتين متواليتين تُحسبان من يوم واحد . أوّلًا في مساء الثالث عشر حيث كانوا يذبحون الفصح تذكارًا لاجتياز الملاك بيوتهم دون قتل بكورهم . ثانياً في مساء الرابع عشر تذكارًا لخروجهم من مصر . والقائلون بهذا القول يستشهدون بعادة اليهود في ايامنا . فقد اكّد لنا بعض

١) احصى الكهنة في اورشليم على عهد نيرون ملك الرومانيين الذبائح الفصحية فبلغ عددها ٢٥٦٠٠٠ فاذا افترضنا انهُ يجتمع في الاقل عشرة انفس على اكل الحمل الفصحي بلغ عدد اليهود الموجودين في اورشليم ايام العيد ٢,٥٦٠,٠٠٠ ولا نحيد عن الحقيقة اذا قلنا انهُ كان يبلغ مليونَين

العارفين باحوالهم والمطّلعين على امورهم انهم يأكلون الفصح في ليلتين متواليتين لا سيّما الاتقياء منهم . لكن هذا الرأي يفتقر الى براهين توطّدهُ فضلًا عن انهُ يناقض الكتاب المقدّس الذي يأمر الاسرائيليين بان يأكلوا الحمَل الفصحي في عشيّة الرابع عشر وألّا يُبقوا شيئاً منهُ الى الغداة (خروج ١٢ : ١٠). امّا عادة اليهود في ايّامنا ان يأكلوا الفصح اكثر من مرة في ايام العيد فليست بجديثة . وسننظر بايّ معنى يلزم ان نقبلها ونفسّرها

هذه هي اخصّ الآراء المتضاربة في هذه المسألة . ونحن ان سألنا سائل عن رأينا قلنا ان السيّد المسيح اكل الفصح مع جمهور اليهود في اليوم المعيّن بالناموس مساء الخميس ١٤ نيسان . وجوابنا على الاعتراض المبنيّ على آية يوحنا (١٨ : ٢٨) . « لم يدخلوا الى دار الولاية لئلّا يتنجّسوا فيمتنعوا عن اكل الفصح » ان المراد بالفصح هنا لا الحمَل الفصحي بل ذبائح اخرى تسمّى فصحيّة لانها كانت تُؤكل في نهار عيد الفصح وفي اليوم التابع لهُ كما يُستدلّ من نصوص عديدة للرّبيين نخصّ منهم الرّبي حِلّل البابلي الذي اشتهر باورشليم في عهد المسيح (١

ويؤيد ذلك ايضاً الكتاب المقدس فقد ورد في سفر تثنية الاشتراع (١٦ : ٢ و٣) « اذبح الفصح للرب الهك من الغنم والبقر في الموضع الذي يختارهُ الربّ ليحلّ فيهِ اسمهُ . لا تأكل عليهِ خميرًا بل سبعة ايّام تأكل عليهِ فطيرًا » (٢ فالكتاب يسمّي ذبائح البقر فصحاً ويأمر ان يؤكل عليهِ الفطير . ولا ريب في انّ اليهود لم يكونوا

١) راجع جمارة اورشليم في الفصح ف ٦ ع ١ و٧ فان الذبائح الدائمة الاضافية وذبائح رؤوس الاهلّة وايام الاعياد يسمّيها الربي حِلّل ذبائحَ فصحية . راجع ايضاً جمارة بابل في الذبائح ف ١ ع ١

٢) ذكر الكتاب المقدس (الفصل ٣٥ من سفر اخبار الايام الثاني) في معرض كلامه عن الفصح الذي صنعهُ يوشيا الملك انه « لم يكن فصح مثل هذا في اسرائيل منذ ايام صموئيل النبي » وانهُ قدّم فيهِ ايضاً بقرًا . فقدّم يوشيا من مالهِ الخاص ثلاثة آلاف من البقر . ورؤساء بيت الله ثلاثمائة ورؤساء اللاويّين خمسمائة . ثم قال الكتاب الكريم « وفرزوا المحرقة ليعطوا بني الشعب بحسب اقسام بيوت الآباء حتى يقربوا للرب كما كتب في سفر موسى . وهكذا فعلوا بالبقر . وشووا الفصح على النار بحسب الرسم . واما الاقداس فطبخوها في القدور والمراجل والطواجن واطافوها بسرعة في كل بني الشعب » (١٢ و ١٣) . وهذا يدلّك على انهُ ما عدا ذبائح الحملان كانت ايضاً في فصح يوشيا ذبائح اخرى فصحية من البقر اكلوها في ايّام العيد

ياكلون في عشية الرابع عشر من الشهر اي في ليلة العيد الّا الحمَل الفصحيّ لا البقر . فكان اذًا اكل الذبائح الفصحية من البقر والغنم في نهار العيد وعشائه وفي اليوم الذي يليهِ . هذا هو الفصح الذي كان الفريسيون يريدون اكله يوم صُلب المسيح وخافوا ان يمنعهم عنهُ التنجس المسبب عن دخول دار الولاية . فلم يكن اذًا المقصود في كلام يوحنا اكل الحمل الفصحي فانهم كانوا قد تمّموه مساء الخميس

ثم ان يوحنا في كلامه عن اليهود لم يمكنهُ لسببٍ آخر ان يعني اكل الحمَل الفصحي لانهُ منذ ضحوة النهار الى المساء كان لليهود وقت كافٍ ليتطهّروا من النجاسة . اما اكل سائر الذبائح الفصحية في وسط نهار العيد فكانت النجاسة الشّرعية تمنع عنهُ ايضاً ولم يكن يسمح ضيق الوقت ان يتطهّروا منها

وليس باكثر صعوبة الجواب على الاعتراض المستنتج من قول يوحنا ان صَلب يسوع كان « يوم التهيئة » ويوم « تهيئة الفصح » (يوحنا ١٩ : ١٤) . فانَّ اليهود كانوا يدعون ليلة السبت « عرب سبت ערב שבת وليلة العيد « عرب يوم طوب ערב יום טוב ». ثم توسعوا في الاستعمال فاطلقوا لفظة « عرب سبت » على النهار الذي قبل السبت لانه في مسائهِ كانت تهيئة السبت حتى صاروا يعنون بها يوم الجمعة . ولعلّ هذا الاستعمال اتّصل من العبرانيين الى السريان والعرب الاقدمين الذين كانوا يسمّون يوم الجمعة ܥܪܘܒܬܐ « عَرُوبة » (١ . وعليهِ فيوحنا الانجيلي بقولهِ « يوم التهيئة » اراد يوم الجمعة ليس الّا

ونجد في الانجيل الشّريف بُرهاناً قاطعاً لا مردّ عليه يؤيد ما نقول وهو ان الانجيليين اذا ذكروا « التهيئة » او « تهيئة الفصح » لا يريدون بها تهيئة عيد الفصح بل تهيئة السبت لانّ اليهود لا يتعاطون عملًا ما يوم السبت كما هو مقرّر وكما يتضح من آية لوقا عن النسوة اللواتي تبعنَ يسوع : « وفي السبت قررنَ حسب الوصيّة » (لوقا ٢٣ : ٥٦) بل كانوا يهيّئون كلّ ما يلزمهم مساء يوم الجمعة . ولهذا السبب يُسمّي

١) « وفي حديث الجُمعة كانت تُسمى عَرُوبة هو اسم قديم لها وكأنّه ليس بعربيّ يُقال يومُ عَروبةٍ ويوم العروبةِ والافصح ان لا يدخلها الالف واللام . . . كعب بن لُؤَيّ . . . اوّل مَن جمّع يوم العروبة . . . وهو اوّل من سمّاها الجمعة فكانت قُريش تجتمع اليهِ في هذا اليوم فيخطبهم » (لسان العرب ٢ : ٨٣ و٨٤)

الانجيليُّون يوم الجمعة يوم التهيئة. قال مرقس (١٥ : ٤٢) : «ولما كان المساء اذ كانت التهيئة التي هي قبل السبت جاء يوسف الذي من الرامة». وقال لوقا (٢٣ : ٥٤ و٥٦) : «وكان يوم التهيئة واخذ السبت يلوح». وقال متى (٢٧ : ٦٢) : «وفي الغد الذي بعد التهيئة اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون الى بيلاطس». فقوله «التهيئة» مرادف للقول «يوم الجمعة» فكأنه قال «في غد يوم الجمعة». وقال يوحنا (١٩ : ٣١ و٤٢) : «ثم اذ كان يوم التهيئة فلئلَّا تبقى الاجساد على الصليب في السبت» «فوضعا يسوع هناك لاجل تهيئة اليهود لانَّ القبر كان قريباً». فقول يوحنا «يوم التهيئة» مرادف للعبارة «يوم الجمعة» والنسخة السريانية البسيطة توضح ذلك باوفر جلاء. فقد ورد فيها «ܡܥܪܘܬܐ ܕܥܘܕܥܐ ܕܝܘܡܐ ܕܥܪܘܒܬܐ» اي «وكان يوم جمعة الفصح» ومثله في لوقا (٢٣ : ٦٤) «ܡܥܪܘܬܐ ܕܥܘܕܥܐ ܕܝܘܡܐ ܕܥܪܘܒܬܐ» اي «وكان يوم الجمعة». أفلا ترى كيف انَّ ما سمَّاهُ يوحنا «يوم التهيئة» تسمّيه الترجمة السريانية يوم الجمعة. وما سمّاه «تهيئة الفصح» تسمّيه الترجمة السريانية «يوم جمعة الفصح»

وقول يوحنا «تهيئة الفصح» لا يريد بهِ ان التهيئة كانت استعداداً للفصح بل ان تلك التهيئة او بعبارة اخرى ذاك يوم الجمعة كان واقعاً في عيد الفصح كما نقول الآن: اثنين الفصح وثلاثاء الفصح واثنين الصيام واثنين العنصرة وهلمَّ جرًّا. فينحلُّ من ثمَّ المشكل المأخوذ من يوحنا. او بالحري جاءت آيتهُ بدليل جديد على انَّ العيدَ كان يوم الجمعة لا يوم السبت وان المسيح اكل الفصح مساء الخميس ليلة العيد كما اكلهُ عامَّة اليهود وانهُ اكلهُ بخبز فطير ورسم سرّ الاوخارستيا بخبز فطير. فلا لومَ اذاً على الكنيسة الغربية ان استعملت الفطير في الذبيحة الالهية

اما قول يوحنا انَّ يوم ذاك السبت كان عظيماً فلا صعوبة فيهِ البتة لانهُ كان بالحقيقة عظيماً لا لانهُ وقع فيهِ عيد الفصح بل لانهُ من جملة ايام العيد ولانهُ احد اليومين اللذين تُؤكل فيهما الذبائح الفصحية غير الحمل الفصحي ولانَّ فيهِ كان شروع المِنجل في الزرع (تثنية الاشتراع ١٦ : ٩ وسفر الاحبار ٢٣ : ١٥) ولاسبابٍ اخرى لا حاجة الى ذكرها جعلتهُ اعظم من سائر سبوت السنة

هذا ولا بدَّ من التوفيق بين يوحنا وسائر الانجيليين. وقد رأينا ان هؤلاء ذكروا بما لا مزيد عليهِ من التصريح والبيان ان المسيح اكل الفصح في وقتهِ فقالوا

«في اول يوم من الفطير اذ كانوا يذبحون الفصح» (مرقس ١٤ : ١٢ ومتى ٢٦ : ١٧ ولوقا ٢٢ : ٧ و٨) وانَّ يوحنا نفسه ذكر العشاء الفصحي. وبما اننا اثبتنا لكلامهِ تأويلاً صوابيًّا وشرحاً مَرضيًّا يُوافق ما قالهُ الانجيليون الآخرون فلو فُرض انهُ باقٍ فيهِ شيء من الصعوبة والإشكال فينبغي شرح ما اعتاص منه بما سهل في غيرهِ وما اشكل فيهِ بما وضح فيهم. وعليهِ فيجب تفسير آيات يوحنا باقوال سائر الانجيليين. وقد رأينا ان اقوالهم بيّنة متبادرة الى الفهم لا التباس فيها البتة وهي شاهدة لنا بان المسيح اكل الفصح في اول يوم من الفطير. بل سمعنا المسيح نفسهُ يُنبئ تلاميذه بموته في يوم عيد الفصح «تعلمون انهُ بعد يومين يكون الفصح وابن البشر يسلم للصلب» (متى ٢٦ : ٢) وقال مرقس (١٤ : ١) : «وكان الفصح والفطير بعد يومين». وقال لوقا (٢٢ : ١) : «وقرُب عيد الفطير المسمَّى الفصح». فترى ان السيد المسيح والانجيليين يتكلمون عن يوم عيد الفصح المعهود حسبما رسمت الشريعة وعن نيّة حفظه وتتميمه في اليوم المعيَّن. وهكذا في انجيل يوحنا (١٣ : ١ و٢) : «وقبل عيد الفصح... فحين كان العشاء» فيعيّن يوحنا الليلة السابقة للعيد وهي الليلة السابقة موت السيّد المسيح وفيها اكل الفصح مع تلاميذه. وحيث كان موته يوم الجمعة يُستنتج ان عيد الفصح كان يوم الجمعة. افيمكن ايراد برهان اقوى واوضح من هذا. وعليهِ فعيد الفصح كان يوم الجمعة الذي فيهِ صُلب المسيح. وكان من ثَمَّ اكل الحمل الفصحي مساء الخميس بالخبز الفطير (١

وقد اراد الله ان يموت السيد المسيح في عيد الفصح لانَّ ذبح الحمل الفصحي كان رمزاً لموته كما نبّه الى ذلك بولس الرسول (١ كوره ٥ : ٧) : «قد ذُبح فصحنا المسيح». وكانت ذبيحة الحمل الالهي مزمعة ان تُبطِل ذبائح العهد القديم كما صرَّح بذلك بولس الرسول (عبر ١٠ : ٨ — ٩) : «فقال اولاً (اي المسيح) انك لم تشأ الذبائح والتقادم والمحرَقات وذبائح الخطيئة ولم ترضَ بها وهي التي تُقرَّب على ما في الناموس. ثم قال هاءنذا آتٍ لأعمل بمشيئتك يا الله. اذاً قد نزع الاول ليقيم الثاني»

---

١) ان الرأي الذي نعرضه والشرح الذي نفضّله قد تمسّك به مشاهير من العلماء يُعوَّل على رأيهم في ما يختصّ بتفسير الكتب المقدسة كالقديس ايرونيموس والقديس اوغسطينوس وكورنيليوس الحجري والكردينال توليت والاب بتريزي وغيرهم

وهب سلّمنا بان المسيح لم ياكل الفصح مع عامّة الشعب اليهودي بل انهُ تقدّمهم في اكلهِ إما مع فريق الجليليين او مع تلاميذه فقط أفيُستنتج من ذلك انهُ لم ياكله على الفطير ؟ لا لعمرُ الحق . لانَّ عدم مراعاة ظروف الوقت ليس فيهِ من الاهمية كما في مخالفة امر الفطير لِما في هذه الوصية من المعاني . فهذا موسى لمّا أوصى باكل الفصح في عشي ١٤ لم يفرض قصاصاً على من يتعدّى هذا الامر . لكنهُ حكم بالموت على من يتجاسر ويخالف وصية الفطير : « كلُّ من اكل خميرًا تنقرض تلك النفس من جماعة اسرائيل » (خروج (١٢ : ١٩) . فقد اعتبر اكل الفصح واكل الفطير بمنزلة واحدة من الاهمية . ولم يكن المسيح ليخالف وصية لها من الاهمية ما لها وليس في تتميمها كبير عناء ولا صعوبة

فمن كل ما تقدم نستنتج بكل صواب وحق انَّ المسيح سواء اكل الفصح في الليلة المعينة بالشريعة او في الليلة السابقة لم ياكله الّا مع الفطير وبالتالي لم يقدّس الّا الفطير في رسم سرّ الاوخارستيا

قد بيّنا بالبراهين السديدة انَّ المسيح رسم سرّ الافخاريستيا على الفطير فثبت اذن ان الكنيسة الغربيَّة تستعملهُ بكلّ صواب في ذبيحة القداس لانها تقتدي بصنيع المسيح . الّا اننا لا نخشى القول بان حلّ المسألة لا يتوقّف على عمل السيّد ولا على الاقتداء بهِ . لانهُ بتقديسهِ الفطير لم يعيّنهُ ولم يحتم بهِ كمادّة ضرورية . ولذلك جاز للكنيسة ان تبدلهُ وتستعمل الخمير . ولو فُرض انهُ قدس الخمير لساغ ايضاً للكنيسة ان تغيّره وتستعمل الفطير لان المسيح لم يوجب احد النوعين ولان كليهما خبز حقيقي والاختار وعدمه امر عرَضي

قد بقي علينا ايراد السبب الثاني الذي حدا بالكنيسة الغربية على تقدمة الفطير ومنهُ يتّضح ايضاً الفرق الموجود بين الكنيستين الغربيَّة والشرقيَّة

ما من احدٍ يجهل ان الكهنة في اوائل الكنيسة كانوا يقدّسون قسماً من الخبز الذي كان يأتي بهِ المؤمنون من بيوتهم فيقدّمونهُ للذبيحة (١ ويثبت هذا الامر

١) وقد نشاهد في ايامنا ما يشبه ذلك . فانهُ ليس بنادر ان ياخذ الكاهن الشرقي جزءاً من الخبز الخمير البيتي ليقدسهُ في الذبيحة . ونذكر اننا لما برحنا دمشق في السنة ١٨٦٠ ميّمين بيروت ونحن في حداثة السنّ اسعدنا الحظ ان نخدم مرارًا كاهن سرياني في تقدمة

شهادات عديدة لا حاجة لايرادها . ذكر تيودور ابو قرّة اسقف حرّان في القرن الثامن ان بعض الجهلة كان يستهزئ بأحد المسيحيين ويوبّخهُ بقولهِ لهُ « من الطحين الواحد تخبز رغيفين فتأكل احدهما في طعامك اليومي ثمَّ تقسم الثاني وتوزّعهُ على الشعب وتقول انهُ جسد يسوع » (١ . ويخبر يوحنا الشمّاس في حياة القديس غريغوريوس البابا (ك ٢ ف ٤١) ان امرأة انكرت الايمان بالقربان الطاهر لانها عرفت في القربانة التي ناولها اياها القديس الخبز الذي كانت عجنتهُ وهيأتهُ . فكان اذًا خبز الذبيحة يؤخذ قديماً من الخبز الاعتيادي الذي يقتات بهِ الشعب . وكان الشعب يقدم للذبيحة خميرًا او فطيرًا على حسب استعماله في طعامه الخمير او الفطير فيقدّس الكاهن قسماً من هذه التقادم في الذبيحة الالهية ويُبقي القسم الآخر ليُوزَّع على المؤمنين كبركة . ومن هنا نشأ الفرق الموجود في الكنائس . وكان المؤمنون اذا جروا على احدى هاتين الطريقتين لا يرضون ابطالها او ابدالها خصوصاً عند ما كفّ الشعب عن تقديم خبز الذبيحة وأخذ الاكليروس يهيئهُ مع شيء من الاحتفال . فلازموا مذ ذاك طريقة واحدة حسب العادة التي كانت قد شاعت عندهم لكن دون ان يأنفوا من مخالفتها في بعض الاحيان ودون ان يحسبوا هذه المخالفة خطأً اذا الجأت اليها الظروف وقدّرتها الاحوال

ولا يخفى ان الشريعة الموسوية لم تَبطُل الّا شيئاً فشيئاً في الكنائس التي كان معظم اعضائها من اليهود مثل كنيسة اورشليم وسائر كنائس الارض المقدسة . فنرى المؤمنين يحضرون الصلاة في الهيكل مع اليهود ويباشرون غير ذلك من اعمال الشريعة القديمة (اعمال ٢ : ٤٦ و٣ : ١ و٥ : ٤٢ و٢١ : ٢٦ و٢٢ : ١٧) . وعليه فاستعمال الفطير لم يَبطل حالًا بعد إنشاء كنيسة المسيح بل دام زمناً ليس بيسير وبما انَّ الذبيحة الالهية كانت تُقدَّم في البيوت كما ذُكر في اعمال الرسل (٢ : ٤٦) عن المسيحيين انهم كانوا «يكسرون الخبز في البيوت ويتناولون الطعام بابتهاج ونقاوة قلب» فلا بِدع اذا

الذبيحة على طقس الخمير . وكانت تلك الايام ايام ضنك وفقر . ولمّا لم يكن يتيسّر للكاهن المذكور ان يُهيئ خبز التقدمة على الطريقة المألوفة التي تطلبها اللياقة واحترام الالهيّات كان يعمد الى الخبز الاعتيادي ويتّخذ منهُ قربانة يقدّسها في الذبيحة الالهية

١) في مقالتهِ الثانية والعشرين

كانوا يقدّمون في ذبيحة القداس من الخبز الذي أعدُّوه لطعامهم لانهُ لا يسعنا القول بانهم كانوا يعدّون نوعين من الخبز الواحد للذبيحة والآخر للطعام وانما كانوا في ايّام الفصح يقدسون الفطير وفي بقية السنة يقدسون الخمير الذي اعتادوا اكلهُ . وقِس على ذلك سائر الكنائس فان كهنتها كانوا يقدسون ذاك النوع من الخبز الذي كان الشعب تعوَّد استعماله في الطعام وتقدمتهُ في الذبيحة

امّا الشعب الروماني فيثبت التاريخ انهُ أَلِفَ اكل الفطير الى القرن الثالث بعد المسيح (١ فلا غروَ اذًا ان الكنيسة اللاتينية ايضاً استعملتهُ في الذبيحة . فان اهل الثروة من الرومانيين المسيحيين كانوا يقدمون الفطير من الخبز بينما كان الفقراء منهم يأتون بالخمير ولما كانت تقادم الاغنياء اوفر والفطير اشدّ نقاوةً وبياضاً واقلّ تفتتاً (٢ ومن ثمَّ اليق بالذبيحة عوّلت الكنيسة خاصّة على استعمالهِ . وشاعت هذه العادة في المغرب ولاسيما في ايطالية حتى انهُ لما بطل في القرون التابعة اكل الفطير في البيوت داوم خدَمة الكنيسة على تهيئتهِ ينوون بذلك ان يكرّموا الذبيحة تكريماً اعظم .

امّا في المشرق فلأن استعمال الخمير في الطعام كانَ اعمَّ عمّت ايضاً عادة تقدمتهِ واستعمالهِ في الذبيحة ولكن دون النهي عن تقديس الفطير . ولدينا برهان قوي على ما نقول ألا وهو إقرار البطريرك ميخائيل كرولاريوس نفسهِ وهو كما سبق القول اوّل من نبَّه الافكار الى مسألة الخمير والفطير وأصلى نيران هذا الخصام وحاول تحطئة الكنيسة اللاتينيّة . فقد قال في رسالة الى بطرس بطريرك انطاكية ما ترجمتهُ حرفيًا : «اتّصل بنا ان بطريركي الاسكندرية واورشليم لا يكتفيان بأن يقبلا في شركتهما اولئك الذين يستعملون الفطير بل انهما يستعملان هما ايضاً احياناً في الذبيحة المقدسة الخبز الفطير» (راجع بارونيوس المجلد ١٧ الصفحة ٩٣ في تاريخ سنة ١٠٥٤)

فاقرار البطريرك كرولاريوس هذا لهُ من الاهمّية ما لا يُنكر . ومنهُ يتّضح انهُ

١) ذكر شيامبيني في مقالته عن الفطير انَّ الموسرين من الرومانيين في عهد الجمهورية وفي ايّام دولة الانطونيين كانوا يأكلون الخبز غير المختمر وبهِ كان يقتات الجنود

٢) في استعمال الفطير رمز الى الطهارة ونقاوة الضمير وقداسة السيرة فقد قال الرسول (١ كور ٥ : ٦ - ٨) : « او لم تعلموا ان الخمير اليسير يخمّر العجين كلّهُ . فألقوا عنكم الخمير العتيق لتكونوا عجينًا جديدًا كما انكم فطير فانّه قد ذُبح فِصحنا المسيح . فلنعيّد اذًا لا بالخمير العتيق ولا بخمير السوء والخبث بل بفطير الخلوص والحق »

في القرن الحادي عشر كانت بعض الكنائس الشرقية تقدس الخمير او الفطير وتعتبر انهُ يصحّ ويجوز استعمالهما في ذبيحة القداس . ولا شك ان تلك الكنائس قد جرت في عملها وتعليمها بحسب تقليدٍ قديم العهد

واذا تصفحنا كتب آباء الكنيسة الاقدمين وقفنا على بعض شهادات تُثبت استعمال الفطير في اوائل الكنيسة . فالقديس يوستينوس الذي عاش في اواسط القرن الثاني للمسيح يقول في محاورتهِ ٤١ ضد تريفون : « ان الخبز غير المختمر الذي كانت الشريعة الموسوية أَلزمت البرص بتقديمه بعد تطهيرهم كان رمزًا الى الاوخارستيا » فهذه المقابلة تبيّن استعمال الفطير في القداس . وذكر اوريجانس في شرحه لانجيل القديس متى (١٢ : ٦) انهُ كان يُقدَّم احياناً على الهياكل خبز مختمر . فقوله « احياناً » دليل على انهم في القرن الثالث قلما يكون في مصر كانوا يقدّمون عادةً خبزًا غير مختمر

والقديس غريغوريوس المنوّر اسقف ارمينية في اواخر القرن الثالث للميلاد ادخل ما بين الارمن كثيرًا من العادات التي وجدها في الكنائس الشرقية المتآخمة لبلادهِ . ولا يخفى ان الارمن يقدسون الفطير من عهد قديم فلا ريب انهم اقتبلوا هذه العادة من الروم او من السريان المجاورين لهم . وعليه يكون الروم او السريان قدّسوا قديمًا الفطير قلّما يكون في بعض كنائسهم . ولو قال معترض ان الارمن اخذوا هذا الطقس عن الكنيسة الرومانية اذ على قول المؤرّخين ذهب القديس غريغوريوس الى رومية بصحبة الملك تيريدات المتنصّر . فنجيب ان هذا الاعتراض لا يضعضع قوّة برهاننا لان اقتداء الارمن بكنيسة رومية دليل على ان استعمال الفطير في الكنيسة الرومانية ليس حديثًا كما عيَّرها بذلك بعضهم بل يرتقي الى اوائل النصرانية

واذا اقتربنا من اواخر القرن الثامن وبحثنا عن عادة الكنيسة اللاتينية في ذلك العصر وجدنا ادلّة غير التي ذكرناها تُثبت ان استعمال الفطير كان اذ ذاك شائعاً . فالعلّامة الشهير ألكوين الانكليزي الذي استقدمهُ الملك كارلوس الكبير ووكلَ اليه إلقاء العلوم في فرنسة يقول في رسالة بعث بها سنة ٧٩٠ الى كهنة كنيسة ليون القانونيين : « ان الخبز الذي نقدسهُ جسدًا يلزم ان يكون غاية في النقاوة بدون خمير

ايّ مادّةٍ كانت تفسدهُ » (١ . وربّان مور رئيس اساقفة ميّانس في المانية وأحد تلاميذ ألكوين يعلّم انهُ « في سرّ جسد ودم المسيح يلزم ان نقدّس خبزًا غير مختمر وخمرًا ممزوجةً بماء » (٢ فهذا التصريح يبرهن على استعمال الفطير عموماً في اواخر القرن الثامن واوائل التاسع قلما يكون في فرنسة والمانية مما يبين ان تقديس الفطير لم ينشأ في الكنيسة اللاتينية بعد انفصال اليونان عنها بل كان متّبعاً فيها قبل ميخائيل كرولاريوس وقبل فوتيوس بل كما سبق القول المثبت بالادلّة انهُ يرتقي الى اوائل النصرانية وانهُ مطابق لصنيع السيد المسيح

ونختم الكلام بقولنا ان هذا الفرق بين الكنائس في تقديس الخمير او الفطير بما انهُ عرضيّ لا جوهريّ فليس من شأنه ان يبعث فائر الضغائن ويزرع زوَان النفور بينها ولاسيما انه لا يمسّ العقيدة بشيء . بل الاولى بنا ان نحافظ على الوفاق ونبتهل الى الله ان يجعل الاتحاد كاملًا ويؤلف القلوب ولو اختلفت الطقوس وتباينت العادات تحت لواء ايمان واحد وكنيسة واحدة وراعٍ واحد

1) Panis qui consecratur in corpus absque fermento ullius alterius infectionis debet esse mundissimus (Epist. 69 ad Fratres Lugdun.)

2) Ergo panem infermentatum et vinum aquâ mixtum in sacramentum corporis et sanguinis Christi sanctificari oportet » (Lib. 1 Instit. cler. c. 31)

في سرّ المعمودية

وفي صحّة العماد بالتغطيس او بالسكب

وردت علينا سابقاً رسالة من احد الكهنة من طائفة الروم الارثوذكس يستفهم فيها عن العماد الممنوح من الوثنيين والبروتستانت . قال : «سمعتُ من احد كهنة الكاثوليك ان تكميل سرّ المعموديّة اذا أُعطي عند مسيس الحاجة لايّ كان ان يتمّمهُ حتى للوثنيين . اي لو فرضنا انهُ وُجد طفلٌ في حالة النزاع الاخير وليس موجودًا لديهِ احد من المسيحيين بل وُجد واحد من الوثنيين فيقدر ان يتمّم هذا السرّ المقدّس على المذهب المسيحي . وحسب زعم هذا الاب يكون مقبولًا في كنيستكم . ثم تطرّف ايضاً الى معموديّة البروتستانت وقال : بما انها غير صحيحة لذلك كنيستكم تعيدها . فنسألكم هل تقبل كنيستكم هذا التعليم . فأظنّ انهُ مغاير لمبدإ كنيستكم . فان كان مقبولًا فعلى ايّ شيء تستندون من الكتاب المقدّس او من مؤلفات الآباء . فلا اظنّ احدًا من الآباء او من اللاهوتيين الشرقيين ام الغربيين ذكر ذلك . فعلى الغالب هو تعليم خصوصي لهذا الاب بقبولهِ معمودية الرجل الوثني الخارج عن الايمان بالمسيح وبرفضهِ معمودية البروتستاني الذي يؤمن بالمسيح . وبما ان مجلّتكم الغرّاء هي لسان حال الكاثوليك فتقدرون ان تبيّنوا من لهُ الحق أن يعمّد عند الضرورة . . . »

***

قبل ان نأخذ في ايضاح المسألة التي عُرضت علينا يحسن ويفيد ان نبيّن اولًا ما هو سرّ المعموديّة . فاذا بيّنّا ذلك أمكننا ان نحكم في عماد البروتستانت أهو صحيح ام باطل . ثم ننتقل الى خادم سرّ العماد ذاكرين من لهُ الحق ان يعمّد مبيّنين ان هذا الحق مختصٌ بالرعاة ثم بالشمامسة بتفويض من الرعاة . ثم في وقت الضرورة بالعلمانيين . وان خطيئة المعمّد او هرطقتهُ لا تمنع ان يكون العماد الذي يمنحهُ صحيحاً . ومن ثم فالعماد المعطى من الهراطقة والوثنيين اللهمّ اذا مُنح كما يجب يكون صحيحاً

ان المعموديَّة هي سرٌّ مقدَّس رسمهُ السيد المسيح ليمحو الخطيئة الاصليَّة ويمنحنا حياة النعمة المبرِّرة ويجعلنا ابناء الله بالشريعة ومستحقين للارث السماوي . وقد تكلَّم المسيح عن العماد فقال انَّه ولادة جديدة لا جسدية بل روحيَّة لانهُ بهِ ينتقل الانسان من موت الخطيئة الى حياة النعمة . قال لاسمهِ السجود : « ان لم يولد احد ثانيةً فلا يقدر ان يعاين ملكوت الله » (يوحنا ٣:٣) . « ان لم يولَد احد من الماء والروح فلا يقدر ان يدخل ملكوت الله » (يوحنا ٣:٥)

وقد عيَّن المسيح مادَّة هذا السرّ وهي الماء وصورته وهي الكلام الذي يلفظهُ مَن يعتمِد فتُخصَّص بهِ المادة لتكون سرًّا مقدَّساً . فاذا ما استُعملت المادة مع الصورة كانت علامة حسّية يمنح الله بها النعمة المحيية . وتدلّ هذه العلامة الحسّية على الفعل الخفيّ الذي يتمّ في النفس . ففي العماد يُغسل الجسد بالماء ويلفظ المعتمِد هذه الكلمات : انا أُعمدك باسم الآب والابن والروح القدس . فتطهير الجسد يدلّ على تطهير النفس بالنعمة وقت العماد كما قال الرسول : « وقد طهّر الرش قلوبنا من دنس الضمير وغسل الماء النقي اجسادنا » (عبرانيين ١٠:٢٢) وقال ايضاً في محبة المسيح للكنيسة : « مطهِّرًا اياها بغسل الماء وكلمة الحياة » (افسس ٥:٢٦)

قلنا ان المسيح عيَّن مادة المعمودية وهذه المادة ليست الَّا الماء الطبيعي فانَّ المسيح والرسل لدى كلامهم عن المعمودية يذكرون دائمًا الماء : « ان لم يولد احد من الماء والروح » (يوحنا ٣:٥) « قال الخصيُّ هوذا ماء فما المانع من ان اعتمد » (اعمال ٨:٣٦) « أَلعلّ احدًا يستطيع أن يمنع الماء فلا يعتمد هؤلاء الذين نالوا الروح القدس مثلنا » (اعمال ١٠:٤٧)

اما الصورة فهي هذه الكلمات : « انا اعمدك باسم الآب والابن والروح القدس » . او الصورة التي تشبهها عند الشرقيين : « يُعمَّد عبدُ الله (فلان) باسم الآب والابن والروح القدس » . فان الرب في انجيلهِ المقدس قال : « تلمذوا كل الامم معمّدين اياهم باسم الآب والابن والروح القدس » (متى ٢٨:١٩) وقد ورد في القانون ٤٩ من القوانين المنسوبة للرسل : « ايما اسقف او قسّ لا يعمّد باسم الآب والابن والروح القدس حسب فريضة الرب بل باسم ثلثة ازليين او ثلثة بنين او ثلثة معزّين فليُقطع »

ولكن لا يكفي استعمال المادة والصورة دون وضع النية في تتميم ما تعملهُ

الكنيسة اي القصد والارادة ان يعمل الخادم ما تعملهُ الكنيسة او ما رتبهُ المسيح . فلو استُعملا على طريقة الحكاية والتمثيل فقط دون وضع النية لا يتمّ السرّ

فاذ تقرر كل ذلك نقول ان احزاباً كثيرة من البروتستانت لا يستعملون الصورة المفروضة من الرب بل يفسدونها ولهذا السبب لا يصحّ العماد الذي تمنحهُ تلك الفرق . فالكنيسة الكاثوليكيَّة لا تجزم ان كل عماد يُعطى من البروتستانت هو غير صحيح بل تُلزم بفحص الطريقة التي يجرون عليها في العماد . فاذا ثبت بعد الفحص المدقَّق انهم يحسنون اعطاء العماد باستعمال المادة والصورة المفروضتين وبوضع النية يُقبل عمادهم . اما اذا ثبت انهم يفسدون الصورة او لا يستعملون الماء الطبيعي بل ماء الورد مثلًا او ماء الزهر ام لا يضعون النية فالكنيسة الكاثوليكيَّة توجب اعادة العماد لا لانهُ أُعطي من البروتستانت لكن لانهُ لم يُعطَ كما يجب . بل اذا تحققت ان احد الكاثوليكيين افسد الصورة بالعَرَض فانها تُلزم باعادة العماد المعطى منهُ ولو كان مانح العماد كاهناً او اسقفاً

خادم سرّ المعمودية

ان خَدَمة سرّ المعمودية الاعتياديين هم الرعاة الذين خلَفوا الرسل اعني بهم الاساقفة والكهنة . لان المسيح اقامهم ليوزّعوا النعَم بمنح الاسرار . فللرسل قال المسيح « اصنعوا هذا لذكري » و « من غفرتم خطاياهم تغفر لهم » و « تلمذوا كل الامم معمّدين اياهم . . . »

ولكن لما كان العماد يكثر منحهُ خاصة في اوائل الكنيسة بسبب ارتداد الوثنيين الى الايمان الحقيقي ولانهُ سرّ يعمّ جميع المقبلين على الكنيسة وكان الرسل ومن خلَفهم مشتغلين بالبشارة واذاعة كلمة الله اقام الرسل شمامسةً ليساعدوهم في تتميم بعض الوظائف . فالشمامسة هم خدَمة سرّ المعموديَّة لكن بتفويض من الرعاة . قال ترتُليانوس : « ان الكاهن الاعظم الذي هو الاسقف له السلطة في منح العماد . ثمَّ الكهنة ثم الشمامسة لكن بتفويض من الاسقف وذلك حفظاً لكرامة الكنيسة . فاذا حُفظت هذه الكرامة حُفظ السلام » (١ وقال القديس ايرونيموس : « بدون اذن

١) في المعمودية الفصل ١٧ (راجع مجموعة آباء اللاتين لمين المجلد ١ الصفحة ١٣٣٦)

الاسقف لا حقَّ للكاهن ولا للشماس ان يعمّداه(١ وبما انَّ هذه القضيَّة لا يرتاب فيها احد فلا حاجة الى مزيد الايضاح والافاضة في تثبيتها

فما سبق يظهر في اول الامر انهُ لا يمكن للعلمانيين ان يعمّدوا. ومع ذلك فتعليم الكنيسة المسلّم بهِ منذ نشأتها هو انَّهُ يحق لهم ان يعمِّدوا والعماد الممنوح منهم يكون صحيحاً وفي وقت الضرورة جائزًا ايضاً. فهم خدَمة المعموديَّة غير الاعتياديين هذا ما يجب بيانهُ الآن. والدليل القاطع لا نجدهُ في الكتاب المقدَّس بل في التقليد وتعليم الكنيسة. الَّا ان الكتاب يحتوي ما يقرّب ويُسهِّل قبول البرهان في الموضوع

اذ كان العماد ضروريًّا للخلاص ضرورة الواسطة حسب قول المسيح: «من آمن واعتمد يخلص» (مرقس ١٦: ١٦). وقوله: «ان لم يولد احد ثانيةً فلا يقدر ان يعاين ملكوت الله» (يوحنا ٣: ٣). وقوله ايضاً: «ان لم يولد احد من الماء والروح فلا يقدر ان يدخل ملكوت الله» (يوحنا ٣: ٥) شاء الله بجوده ومحبته للبشر ان يجعل قبولهم العماد ممكناً بل سهلًا في اي بلد كان في كل مملكة ومدينة وقرية وبيت. وفي اي وقت كان في كل يوم وساعة ودقيقة. ولهذا السبب اتخذ المسيح لسرّ العماد مادّةً نجدها دائماً وفي كل مكان وهي الماء. فانهُ يهطل من السماء ويتفجر من الصخر ويملأ البحار وياتينا من ينابيع بعيدة جارياً في الجبال والسهول ونستنبطهُ من جوف الارض بحفر الآبار. ولا قوام لحياة الانسان على وجه المسكونة الَّا بهِ. فهو بين يديه متى رغب. وعليهِ فمنح العماد من جهة المادة سهل للغاية

ولكن ما الفائدة من السهولة في وجود المادة لو كان المسيح حصر منح العماد في بعض افراد هم الكهنة كما عمل في تقديس سرّ الافخارستيا ومنحِ الحلّة في سرّ التوبة. أما انهُ بعد ان ألزم الجميع حتى الاطفال بقبول العماد للخلاص كان عرّض كثيرين للحرمان منهُ ولفقدان السعادة الفائقة الطبيعة. لانهُ يتعذر وجود الكهنة في كل مكان وفي كل ساعة. فلهذا السبب رغماً من توجيه المسيح كلامهُ الى الرسل الاحد عشر بقولهِ: «اذهبوا الآن وتلمذوا كل الامم معمّدين اياهم باسم الآب والابن والروح القدس» (متى ٢٨: ١٩) لم يحصر اعطاء العماد في الرسل ومَن خلفهم.

١) في محاورتهِ ضدّ اللوسفرانيين العدد ٩ راجع مجموعة آباء اللاتين لمين المجلد ٢٣ ص ١٧٣

فنسمعهم يصرّحون بأن وظيفة العماد ليست خاصة بهم فقد قال الرسول: «ان المسيح لم يرسلني لاعمّد بل لأُبشِّر» (١ كورنتوس ١: ١٧) ونرى رجالًا ليسوا رسلًا ولا كهنة كالشمامسة وغيرهم يمنحون سرّ العماد كما فعل فيلبس الشماس الذي عمّد قيّم خزائن ملكة الحبشة (اعمال ٨: ٣٨) وكما عمل حنانيا اذ عمد بولس الرسول في دمشق (اعمال ٩: ١٨) ولا شيء يبيّن ان حنانيا كان اسقفاً او كاهناً او شمّاساً بل يذكر عنهُ فقط انهُ من مسيحيي دمشق «وكان بدمشق تلميذ اسمه حنانيا» (اعمال ٩: ١٠) ونرى في يافا بطرس الرسول يأمر بان يتعمد آل بيت قائد المائة كرنيليوس (اعمال ١٠: ٤٨) ولم يُذكر انَّ بولس الرسول عمّد الذين آمنوا في افسس بل يذكر ما يُشعِر بنفي ذلك وان بولس احتفظ لذاتهِ ان يمنحهم بعد اعتادهم سرّ التثبيت «فلما سمعوا اعتمدوا باسم الرب يسوع ووضع بولس يديهِ عليهم فحلَّ الروح القدس عليهم» (اعمال ١٩: ٥، ٦). ولمَّا آمن اهل السامرة صغيرهم وكبيرهم بما كان فيلبس الشماس يبشرهم بهِ اعتمدوا رجالهم ونساؤهم (اعمال ٨: ١٠- ١٣) ولم يكن اذ ذاك احد من الرسل في السامرة. وانما ذهب اليها بعد ذلك بطرس ويوحنا ليعطيا الروح القدس للذين كانوا اعتمدوا قبلًا

فبعد الوقوف على هذه الحوادث ولم يُذكر منها الَّا النزر اليسير في اعمال الرسل مَن ينكر ان العلمانيين في اوائل الكنيسة كثيرًا ما كانوا يمنحون سرّ المعمودية عند مسيس الحاجة اذا لم يجدوا لا كاهناً ولا شماساً يقوم بهذا الواجب؟ أفلا ترى ان اعمال الرسل تبين دائماً الفرق العظيم الموجود بين منح المعمودية ومنح الروح القدس؟ فلا اهميَّة البتة لذكر خادم المعموديَّة عند القديس لوقا كاتب اعمال الرسل بينما نراه متأنياً في تعيين الرسل كخدَمة لسرّ التثبيت وفي ذكر قدومهم من اماكن شاسعة لمنح هذا السرّ. ولا سبب في هذا الفرق الَّا ان العماد كان يعطى ايضاً من العلمانيين اما سرّ التثبيت فكان مختصًّا بالاساقفة وبالكهنة ايضاً لكن بتفويض خاص

وقد اوضح آباء الكنيسة هذه الحقيقة حتى لم يبقَ فيها اقلّ ريب. فبعد ان اكد ترتليانوس ان السلطة في اعطاء المعموديَّة هي خاصة بالاسقف ثم الخوري فالشماس قال: «الَّا ان العلمانيين لهم ايضاً الحق ان يعمّدوا ... يمكن لكل انسان ان يمنح

العماد لانهُ عطيَّة الله » (١ . وايرونيموس بعد قولهِ : لا حقّ للكاهن والشماس ان يعمّدا بدون اذن الاسقف قال : «لكنَّا نعلم انهُ كثيراً ما يجوز للعلمانيين ان يعمّدوا اذا اقتضت الضرورة» (٢

ولكي نفهم هذه المسألة حقّ الفهم يلزم ان نميّز امرين في منح سرّ المعموديَّة هما صحَّة السرّ وجواز منحه . فيمكن ان يكون منح العماد صحيحاً دون ان يكون جائزاً . فلو افترضنا ان كاهناً لاتينيًّا يعمّد بالتغطيس فان العماد الذي يعطيهِ يكون صحيحاً لكن غير جائز لانهُ يخالف رتبة طقسهِ الذي يأمرهُ ان يعطي العماد بالسكب وهذه المخالفة هي خطأ . واذا عمّد الكاهن الرومي بالسكب يكون عمادهُ صحيحاً ايضاً لكن غير جائز لمخالفتهِ رتبة طقسهِ في امر مهمّ . وهكذا العلمانيّ اذا عمّد بالرتبة المختصة بالكهنة او في غير الضرورة يكون عمادهُ صحيحاً لكن غير جائز

وهؤلاء آباء الكنيسة نراهم يميزون بكل صواب في اعطاء سرّ المعموديَّة صحة السرّ وجواز منحه . فيعلّمون انهُ لا يجوز للعلماني ان يتعدَّى حقوق الكهنة في منح سرّ المعموديَّة ويقولون انهُ يخطئ اذا منحهُ بدون ضرورة لكنَّهم يؤكدون ان السرّ الممنوح على هذه الطريقة يكون صحيحاً لا باطلاً وإن اخطأ الذي تعدَّى الحقوق .

امَّا اذا اعطى العلماني العماد لضرورة موجبة فيكون عملهُ خالياً ايضاً من الخطإ

قال القديس اوغسطينوس (٣ : « ان احوجت الضرورة العلماني فمنح العماد لمدنفٍ على الموت . . . أفيحقّ لاحد القول انهُ يلزم اعادة هذا العماد . لانهُ لو أُعطي بدون ضرورة موجبة كان تعدّياً على حقوق الغير . لكن اذا احوجت الضرورة لاعطاء العماد كان الذنب خفيفاً (٤ او لم يكن ثَمَّ من ذنب . ومع ذلك وان أُعطي العماد بدون ضرورة البتَّة مع التعدّي على حقوق الغير واعطي من ايّ كان ولايّ كان فانَّ العماد

١) في المعمودية الفصل ١٧
٢) في محاورتهِ ضد اللوسفرانيين العدد ٩
٣) في مقالتهِ ضد پرمنيانوس الكتاب الثاني العدد ٢٩ راجع مجموعة آباء اللاتين لمين المجلد ٤٣ الصفحة ٧١
٤) لعل اوغسطينوس يتكلّم عن الخطأ الذي يرتكبهُ العلماني مانح العماد في وقت الضرورة اذا منح العماد بالرتبة المختصَّة بالكهنة او اذا منحهُ بحضور كاهن او شماس

متى مُنح لا يمكن القول انهُ لم يُمنح وإن اصبنا في قولنا ان منحهُ كان غير جائز . لكن هذا التعدّي غير الجائز يُغفر اذا ارعوى الانسان وندم »

ولا بدّ من التنبيه انَّ الحق الذي للعلمانيين في منح العماد هو فرضٌ تازمهم بهِ المحبَّة المسيحيَّة في وقت الضرورة . فلا يجوز لهم ان يعمّدوا الَّا في خطر الموت ان لم يوجد كاهن او شماس يقوم بهذا الفرض الواجب . واذ ذاك ليس فقط يجوز للعلماني بل يجب عليهِ اعطاء العماد واذا لم يعطهِ كان «مذنباً لهلاك انسان» كما يقول ترتليانوس (١

فاذا تقرَّر كل ذلك نخطو خطوةً اخرى لحلّ المشكل الذي عُرض علينا بخصوص العماد المعطى من الوثني . فتمهيداً لحل المشكل ينبغي ان توضح مسألة ذات اهميَّة وهي انهُ لا يُشترَط لصحة السرّ ان يكون مانحهُ ذا ايمانٍ مستقيم او في حال النعمة

ان مسألة صحة او عدم صحة العماد باعتبار استقامة او عدم استقامة ايمان المعمِّد وديانته ليست حديثة في الكنيسة . وقد اثارت في القرن الثالث والرابع للمسيح جدالاً عنيفاً تناظر فيهِ اشهر الاساقفة مثل القديس قبريانوس الشهير والقديس اوغسطينوس وعُقدت بشأنها مجامع عديدة . وبسبب هذه المسألة حدث في الكنيسة انشقاقانِ يعرَف الاوَّل منهما ببدعة مُعيدي العماد والثاني ببدعة الدوناتيين نسبة لدوناتوس احد اساقفة افريقية

وخلاصة الخبر هو ان بعض اساقفة افريقية ومن جملتهم القديس قبريانوس وبعض اساقفة الشرق ومنهم فرمليانوس مطران قيصرية قبدوقية ادَّعوا ان العماد الممنوح من هرطوقي هو باطل وانهُ يلزم اعادته لمن يأتون الى الكنيسة الكاثوليكيَّة

فلمَّا أَن تلبَّدت السماء بالغيوم وخيَّم الظلام على بعض العقول واخذت الآراء تتضارب جمع قبريانوس سنة ٢٥٦ مجمعين محلّيين حضر الاوَّل منهما ٣١ اسقفاً والتأم في الثاني ٧١ وقرَّروا ان الاسرار التي تُمنح خارجاً عن الكنيسة الكاثوليكيَّة لا يمكن ان تكون صحيحة . وغب عقد هذين المجمعين اوفد قبريانوس الى رومية اسقفين أصحبهما بتحرير غاية في الرقة والاحترام الى الحبر الروماني القديس اسطفانوس الاول (٢٥٤—٢٥٧) يخبرهُ بما قرره الاساقفة ليثبتهُ بسلطتهِ . فكان هذا الخبر كشرارة

١) في المعمودية الفصل ١٧ راجع مجموعة آباء اللاتين لمين المجلد ١ الصفحة ١٢٣٨

وقعت في غابة فأضرمت فيها حريقاً هائلاً لانَّ القديس اسطفانوس لتعلقهِ بالتقليد القديم ساءهُ ما بلّغهُ اياه الاسقفان المرسلان من طرف قبريانوس فلم يعطهما تحيَّة السلام وكتب الى قبريانوس رسالة شديدة اللهجة بيَّن فيها العادة القديمة قائلاً : « اذا عاد اليكم احد من أيَّة هرطقة كان فلا تُبدعوا شيئاً جديداً بل اتَّبعوا ما سُلّم اليكم وهو ان تضعوا فقط عليهِ الايدي للتوبة » وتهدَّد بالقطع قبريانوس واساقفتهُ ان لم يرعووا . وارسل ايضاً رسالة في المعنى نفسهِ الى فرمليانوس والاساقفة الشرقيين من قيليقية وقبدوقية شركاء قبريانوس في رأيه

الَّا ان قبريانوس لم يُذعِن حالاً للحقيقة بل عقد سنة ٢٥٨ مجمعاً آخر التأم فيهِ ٧٨ اسقفاً وعدد غير يسير من الكهنة والشمامسة والعوام فأثبتوا ما كانوا قرَّروهُ سابقاً . والى القديس قبريانوس يشير اوغسطينوس في رسالتهِ ٤٨ الموجهة الى وينشنسيوس الدوناتي (العدد ٣٨) اذ يقول : « لعلّ الذين ابتهجوا ايّ ابتهاج بغلطهِ حذفوا من كتاباتهِ ما يدلّ على انهُ تاب عنهُ لئلَّا يُحرَموا محامياً لهم عظيماً »

هذا وان مقاومة قبريانوس للتعليم القديم لا تمسُّ صحة ايمانه لان المسألة لم تكن تعتبَر اذ ذاك متعلقةً بالايمان بل مسألة تهذيبيَّة . ولم تكن الحقيقة تحدَّدت بعدُ في مجمع مقبول في الكنيسة ولهذا نرى قبريانوس يعترف في رسالتهِ الى البابا اسطفانوس انهُ ترك ملْ الحريَّة لاولئك الاساقفة الذين في افريقية نفسها لم يكونوا يُعيدون العماد المعطى من الهراطقة . وقد قال اوغسطينوس (١ عن قبريانوس انهُ « حفظ رباط الاتحاد بكل تواضع » . وهكذا القول عن فرمليانوس . ولا يخفى ان قبريانوس استشهد سنة ٢٥٨ فاذا كانت صدرت منهُ بعض هفوات في جدالهِ مع البابا اسطفانوس فقد كفَّر عنها بسفك دمهِ . ولم يلبث الهياج الذي ثار في ايامهِ ان همد وانطفأت نارهُ بتحديدات مجمع أَرْل المكاني والمجمعين المسكونيين الاول والثاني

وقام في القرن الرابع الدوناتيون مدَّعين ان العماد لا يصحّ اذا كان مانح العماد في حال الخطيئة المميتة خالياً من النعمة المبرّرة . ثم لطَّفوا خطأهم مقتصرين على القول بانهُ لا يصحّ العماد الممنوح من الخاطئ المشهور لا الخفيّ . فنهض القديس اوغسطينوس

١) في العظة ٣١٢ العدد ٦

(٣٥٤—٤٣٠) لمناظرة الدوناتيين ومناقضتهم فأفحمهم وانتصر للحقّ مستنداً الى ما كانت قررتهُ الكنيسة الكاثوليكيَّة من انَّ العماد الممنوح من الهراطقة يكون صحيحاً اذا أُعطي مع الشروط الواجبة فكم بالحري يكون صحيحاً اذا كان مانحهُ كاثوليكيًّا وإن خاطئاً

فالخلاف كلهُ اذاً ينحصر في صحة العماد او عدم صحته نظراً لايمان مانح العماد وبرارته . فاصحاب التعليم الفاسد يدَّعون انَّ العماد وإن روعيت فيهِ كل الشروط لا يكون صحيحاً ما لم يُعط من خادمٍ مستقيم الرأي في الايمان اي كاثوليكي وغير خاطئٍ اقلَّهُ بخطيئة علنية . اما التعليم القديم فيقول بانَّ العماد على افتراض انهُ أُعطي باسم الثالوث الاقدس مع الشروط الواجبة يكون صحيحاً وإن كان خادم العماد هرطوقيًّا او مارقاً من الدين او خالياً من النعمة المبرّرة

فاذا بيَّنا ان صحَّة السرّ لا تتوقَّف على ايمان خادم السرّ وبرارتهِ جاز لنا ان نستنتج بكل صواب ان العماد يكون صحيحاً وان أُعطي من وثنيّ بشرط ان يمنحهُ كما تمنحهُ الكنيسة وان يقصد عمل ما تعملهُ

وهذه القضية تُبيَّن بالتقليد المتواصل وتعليم الكنيسة القديم . فانها علَّمت على الدوام ان المعموديَّة لا تكتسب شيئاً من ايمان الخادم وبرارته ولا تخسر شيئاً لكفرهِ وخطيئتهِ

فانَّ رأي قبريانوس واصحابه لم يكن الَّا حديثاً لا يرتقي الى اكثر من اربعين سنة اي الى زمان اغريبّينوس اسقف قرطجنة سنة ٢١٧ او ٢١٥ وهذا اغريبّينوس كان اوَّل من قال بهذا التعليم الجديد الفاسد . بينما التعليم الكاثوليكي القديم عُمل بهِ منذ اوائل الكنيسة كما اكَّد ذلك البابا اسطفانوس الاول اذ كتب الى قبريانوس : « لا تبدعوا شيئاً جديداً بل اتَّبعوا ما سُلّم اليكم » . واذا كان شارك قبريانوسَ ٧٨ اسقفاً في نوميدية و٥٠ في فريجية فما هذا بالنسبة الى العدد العديد من الاساقفة في العالم اجمع . ولا يخفى انهُ كان في ذلك الوقت في افريقية وحدها اكثر من ٥٠٠ اسقف وانهُ وُجد في المجمع المكاني المنعقد سنة ٣١٤ في ارل من اعمال فرنسة نحو ٦٠٠ اسقف

ان مجمع أَرل الذي سبق ذكرهُ قرَّر في القانون ٨ ما ترجمتهُ بالحرف : « بخصوص الافريقيين الذين بمقتضى شريعتهم يُعيدون العماد قد رضيت الجماعة ان يُسأل مَن يعود

منهم ان ينضمّ الى الايمان المستقيم نقبلهم مثل يونانيين(١ . على اننا في اليوم الاول نجعلهم مسيحيين وفي الثاني موعوظين وفي اليوم الثالث نقتم عليهم فننفخ في وجوههم وآذانهم ثلاثاً . وعلى هذه الحالة نعظهم ونبقيهم ماكثين مدة زمان في الكنيسة يسمعون الكتب وبعد ذلك نعمّدهم » (٢

هذا هو ايضاً تعليم اوغسطينوس في مواضع شتى . وتعليم ايرونيموس في محاورتهِ ضدّ لوسفيروس الكلياري . قال اوغسطينوس : « ان العالم اجمع تمسّك بالعادة القديمة وبها وحدها قاوم اولئك العازمين على احداث امر جديد في الكنيسة » (٣

فقد ثبت اذاً من تحديدات المجامع ان هرطقة مانح العماد لا تمنعهُ من ان يعطي عماداً صحيحاً اذا استعمل الصورة الواجبة . ويحسن ان نوضّح هذه التحديدات بالبراهين اللاهوتيّة فنقول : ان صحّة الاسرار انما تتعلّق بارادة الله وبالترتيب الذي وضعه المسيح . وبحسب هذه الارادة وهذا الترتيب لا ترتبط قيمة الاسرار الذاتية وفاعليتها باستحقاق او عدم استحقاق الخادم الذي يمنح السرّ . فالسلطة في اعطائها لا تتوقف على قداسة الخادم واستقامة ايمانه . ولم يشأ الله ان طبيعة الاسرار الجوهرية تتعرّض للمخاطر والبطلان باعتبار حالة الخادم الشخصية . قال القديس توما الاكويني : « كل فاعلية الاسرار تأتي من المسيح » . وفي الكتاب المنسوب الى القديس امبروسيوس ينبّه الذي يقبل الاسرار الى ان يعتبر خدمة الكهنة وسلطتهم لا استحقاقهم الشخصي اذ يقول : « لا تعتبر استحقاقات الاشخاص بل السلطة الكهنوتية » (٤ . وقال ايضاً مخاطباً الرب : « ان الخدمة هي خدمتنا اما الاسرار فهي اسرارك وليس في قدرة الانسان ان يمنح الالهيات بل هي هبتك يا ربّ » (٥

وقال مرتينوس الخامس في البند ٢٢ من حكمه : « ان الكاهن الشرير الذي

---

١) اي كأنهم وثنيون لم يقبلوا قط العماد لان عمادهم كان باطلاً

٢) راجع مجموعة المجامع لمانسي المجلد الثالث الصفحة ٥٦٣ وكتاب قوانين الرسل والمجامع المسكونية والمكانية طبعة المحروسة بمصر الصفحة ٢١

٣) الكتاب الثاني عن المعمودية ضد الدوناتيين الفصل التاسع

٤) في الاسرار الفصل ٥ العدد ٢٧

٥) في الروح القدس الكتاب الاول العدد ١٨

يستعمل كما يجب المادة والصورة قاصداً ان يتمّم ما تعلمهُ الكنيسة يتمّم حقاً السر فيحلّ حقاً ويمنح حقاً سائر الاسرار »

فالانسان الخادم للسرّ ليس الّا خادماً او آلة بالنسبة الى السيّد المسيح الذي يعمل في السرّ عملاً غير منظور . نعرف ذلك من الكتاب المقدس الذي يعلمنا بأنّ خدمة الاسرار لا يتصرّفون بسلطتهم الذاتية بل بسلطة المسيح العامل الاول والاعظم في السرّ . قال الرسول في رسالته الاولى الى اهل كورنتس (٤ : ١) : « فليحسبنا الانسان كخدام المسيح ووكلاء اسرار الله » . وقال ايضاً (٣ : ٤ و٥) : « فمن ذا ابلّوس ومن ذا بولس انهما خادمان آمنتم على ايديهما » . وفي انجيل يوحنا (١ : ٣٣) يقال عن المسيح انهُ « هو الذي يعمّد بالروح القدس » . وقال اوغسطينوس في شرحه يوحنا (المقالة ٥ العدد ٦) : « ان العماد يكون بحسب سلطة الذي يُعطى باسمهِ لا بحسب الشخص الخادم لهُ » . وفي العدد ١٩ يقول : « ان ما منحهُ بولس وما منحهُ بطرس كان من المسيح ولو منحه يوضاس لكان من المسيح . . . اني انظر الى الحمامة القائلة لي هذا هو الذي يعمّد » يريد بالحمامة الروح القدس الذي في عماد المسيح حلّ عليهِ بهيئة حمامة واوحى ليوحنا انّ يسوع هو الذي يعمّد

فالمسيح اذاً هو العامل الاول في الاسرار كما انهُ هو الذي بقدرته الذاتيّة يطهّر ويقدّس النفوس من حيث انهُ ينبوع قوّة الاسرار . ولا يستخدم البشر الّا كخدَم وآلة . ونظراً لقدرته ومحبته للبشر يمكنه ويريد ان يمنح نعمة الاسرار والحياة الروحية بواسطة خادم وإن شرّيراً وبآلة ميّتة روحياً . قال توما الاكويني : « المسيح هو الذي يعمل في الاسرار لكن بواسطة الابرار كأعضاء حيّة وبواسطة الاشرار كأعضاء ميّتة » وقال ايضاً : « ان شرّ الخدَمة لا يمنع المؤمنين بالمسيح ان يقبلوا الخلاص من المسيح في الاسرار » وقال اوغسطينوس : « ماذا يضرّك الخادم الشرير اذا كان الربّ صالحاً » (١ وقال ايضاً : « ان الخادم بما انهُ واسطة لا يمنع عطية المانح » (٢

وقد طالما سعى آباء الكنيسة وعلماؤها في ايضاح هذه الحقيقة بتشابيه استعاروها مما نشاهدهُ في الطبيعة . قال القديس توما : « قلّما يهمّني اذا جرت المياه ان تكون

---

١) في شرحه يوحنا المقالة ٥ العدد ١١

٢) في عظته ٢٦٦ العدد ١

ولمّا كان هذا الحادث نادر الوجود نرى آباء الكنيسة في العصور الاولى قلّما تعرّضوا للبحث عنه. ولم نجد الّا القديس اوغسطينوس الذي لم يترك مسألة دينية ولاهوتية الّا خاض عبابها يبحث عن الامر الذي نحن في صددهِ. قال: «وهنا محلّ لمسألة أُخرى وهي ايمكن ان يعطي ايضاً العماد اولئك الذين ليسوا مسيحيين. هذه مسألة ينبغي ان لا يكون الجواب عنها بخفّة دون سلطة مجمع تضاهي اهميتُهُ اهمية الموضوع» (١

وقال في المعموديـة ضد الدوناتيين (٢ : «ويسألون ايضاً اذا كان يصحّ العماد الممنوح من شخص غير معمّد يكون تعلّم بطريق الاتفاق كيف يجب منحه»

وهذا جواب اوغسطينوس: الأحقّ بنا ان لا نسلك بتهوُّر في مسائل لم تُعرَض في مجمع مكاني كاثوليكي ولم يحكم بها مجمع عمومي»

ثم يقول: «مع ذلك لو وجدتُ في مجمع دار فيهِ البحث عن هذه الامور ولم يسبقني في ابداء رأيه مَن افضَل ان اتبع رأيهم وألحُوا عليّ بان أُعرب عن افكاري ولم يعرض اذ ذاك ما يغيّر الرأي الذي انا فيهِ الآن لدى إملائي هذه الاسطر لَمَا كنتُ اشكّ في انّ العماد المقدّس بالالفاظ الانجيلية (٣ المُعطى بايمانٍ ما ودون رثاء هو عماد حقيقي في اي محلّ ومن ايّ انسان أُعطي»

في سفَرٍ. او لانّهم يرغبون منح العماد لاولادهم في كنيسة مشيّدة على اسم احد اولياء الله في قرية بعيدة عنهم. وما شاكل. فانّهم بهذا التأخير يعرّضون الطفل المولود حديثًا لفقدان نعمة العماد وحرمانهِ من السعادة السماوية والتمتع بالله. لان حياة الطفل كالزهرة الرخصة تُفقَد لادنى حادث يعرض له. فايّ حسرة للوالدين المسيحيين اذا مات طفلهما دون عماد. فتكون الخسارة مضاعفة فقدهما طفلهما وفقدهُ الحياة الابدية

فما احرى بالوالدين في الشرق ان يقتدوا بالوالدين في الغرب الذين يبادرون الى اعطاء العماد لاطفالهم في الايام الاولى لميلادهم رغبةً منهم في ان ينالوا بأقرب ما يمكن حياة النفر ويُصبحوا ابناء الله وهياكل الروح القدس مزيّنين بمواهبه الروحية. هذه هي لعمري محبة الوالدين الحقيقية لاولادهم محبة نفوسهم وبرارتهم وسعادتهم الابدية فضلًا عن عدم طاعتهم لاوامر الكنيسة في ذلك

١) في مقالتهِ ضد برمنيانوس الكتاب ٢ العدد ٣٠ راجع مجموعة آباء اللاتين لمين المجلّد ٤٣ الصفحة ٧٣

٢) الكتاب ٧ الفصل ٥٣ راجع مجموعة اباء اللاتين لمين المجلّد ٤٣ الصفحة ٢٤٢

٣) اي بالصورة المذكورة في الانجيل (متّى ٢٨ : ١٩): «معمدين اياهم باسم الآب والابن والروح القدس»

وقال أيضاً اوغسطينوس: «وان اعطي العماد بدون ضرورة البتة مع التعدي على حقوق الغير وأُعطي من أيّ كان» فان العماد متى مُنح لا يمكن القول انه لم يُمنح» (١ فبقوله «من ايّ كان» يشمل ايضاً الوثني مانح العماد. وهذه المسألة التي كانت غامضة في القرون الاولى للنصرانية توضحت في القرون التابعة حتى لم يبقَ عالم او لاهوتي الّا سلّم بها وعلّمها. قال البابا نيقولاوس الاول في جوابه على سؤالات استفهمه عنها البلغار: «ذكرتم ان كثيرين في بلادكم مُنحوا العماد من احد اليهود وانكم تجهلون أكان هذا مسيحيًا ام غير مسيحي وتطلبون ما الذي يجب عمله في امر هؤلاء». فاجاب البابا قائلًا: «اذا ثبت انهم اعتمدوا باسم الثالوث الاقدس او فقط باسم المسيح (٢ ... كما جاء في اعمال الرسل يجب ان لا تعاد معموديتهم»

وقال ايضاً البابا اوجانيوس الرابع في صورة الايمان التي بعث بها الى الارمن: «في وقت الضرورة ليس فقط الكاهن والشماس الانجيليّ لكن ايضاً الرجل العلماني والمرأة بل الوثني والهرطوقي يمكنهم ان يعمّدوا بشرط ان يستعملوا الصورة التي تستعملها الكنيسة مع النية بأن يتمّموا ما تعمله»

وقال القديس ايزيدوروس: «ان روح الله يمنح نعمة العماد وان كان مانح العماد وثنيًا» (مجلة الحق القانوني الصفحة ٤٨٢)

والمجمع اللاتراني الرابع وهو المسكوني الثاني عشر (سنة ١٢١٥) حدّد ان «سرّ المعمودية الممنوح كما يجب يفيد للخلاص ايًّا كان مانحه»

وفي صورة الايمان التي ألزم بها الشرقيين اوربانوس الثامن وبنديكتوس الرابع عشر ورد: «ثم اني اؤمن ان العماد هو ضروري للخلاص. ومن ثم اذا وُجد انسان

---

١) في مقالته ضد برمنيانوس الكتاب ٢ العدد ٣٩

٢) ان العبارة «اعتمد باسم يسوع المسيح» التي وردت في بعض الآيات من اعمال الرسل (٢ : ٣٨ و ١٠ : ٤٨ و ١٩ : ٥) واشار اليها نيقولاوس البابا لا يُراد بها الاقتصار على ذكر اسم يسوع في منح سرّ المعمودية وعدم ذكر الاقانيم الثلاثة المقدّسة بل يُراد بها التمييز بين معمودية يسوع ومعمودية يوحنا كما يتّضح ذلك من اعمال الرسل (١٩ : ٣-٦) فتدلّ اذًا هذه العبارة لا على انّ العماد كان يُعطى باسم يسوع بل على ان العماد عند المسيحيين هو العماد الذي رسمهُ وأمر بمنحهِ سيدنا يسوع المسيح اي العماد الممنوح باسم الآب والابن والروح القدس (متى ٢٨ : ١٩) هذا هو العماد الذي يمحو الخطيئة ويمنح النعمة بسبب استحقاقات سيدنا يسوع المسيح

في خطر الموت القريب يلزم المبادرة الى منحه اياه وان العماد الممنوح من أيّ كان وفي ايّ وقت كان بالمادة والصورة المفروضتين مع النية هو صحيح »

وربّ معترض يقول : هل يمكن ان يقصد الوثني عمل ما تعمله الكنيسة وهو لا يؤمن بالعماد ولزومهِ للخلاص ولا بالكنيسة ولا بالمسيح

اجيب انهُ لا يُطلب من الوثني ان يؤمن بهذه الامور ليكون العماد الذي يمنحه صحيحاً بل يكفي ان يعلَم ان المسيحيين يعتقدون ذلك ويقصد عمل ما يعملونهُ وما يُطلب منهُ

ثبت اذًا ان العماد المعطى كما يجب من غير المسيحي هو صحيح. وذلك رحمة من جودهِ تعالى لئلّا تهلك نفس اذا لم يوجد لمنح العماد في حالة النزاع الاخير الّا انسان غير مسيحي. لانّ الرب اكّد في انجيلهِ الطاهر قائلًا: « ان لم يولد احد من الماء والروح فلا يقدر ان يدخل ملكوت الله » (يوحنا ٣ : ١٥)

العماد بالتغطيس أو بالسكب

بمناسبة كلامنا عن المعمودية ولما نشاهده في هذه الايام الاخيرة من تجديد العماد لبعض افرادٍ من ابناء الطوائف الكاثوليكية الذين يلتجئون عادةً الى الطائفة الارثوذكسية لغايات بشريّة بل اثيمة يحسُن بل يُفيد جدًّا ان نبحث عن العماد ايكون صحيحاً ان تمّ بسكب الماء على رأس المعمَّد دون تغطيسه فيه. فنقول انّه لصحيحٌ بدون ادنى ريب للاسباب التي سنوردها ونوضّحها. الّا ان السلطة العليا في الكنيسة تُلزم الكهنة ان يحافظوا على الطقس المتَّبع في كل كنيسة إن غربية وان شرقية. وتصرّح مع ذلك بان الكاهن اللاتيني اذا خالف طقسه وعمّد بالتغطيس يكون العماد صحيحاً. وكذلك الكاهن الشرقي اذا عمّد بسكب الماء على الرأس. لانه بحسب قول القديس توما الاكويني الرأس هو الجزء الاعظم والاشرف في الانسان يحتوي على جميع الحواس الباطنة والظاهرة. فاذا سُكب الماء على الرأس سكب على العضو الرئيسي في الانسان

ورد في كتاب التعليم المسيحي للارثوذكس(١ ما نصُّه : « العمل المنظور اعني التغطيس ثلاث مرات باسم الثالوث الاقدس الذي هو رمزٌ من جهة لدفن المخلص ومن جهةٍ اخرى لقيامته وقد اشار الى ذلك بولس بقولهِ « اننا كلّ مَن اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموتهِ فدُفنّا معه بالمعمودية للموت... لانّه ان كنّا قد صرنا متحدين معه بشبه موتهِ نصير ايضاً بقيامته » (رو ٦ : ٣و٤و٥). فنقول ان هذا العمل المنظور هو عملٌ جليل ورمزٌ جميل مفيد ومؤثّر للتقوى. الّا انه غير ضروري لصحّة سرّ العماد. ومن انكرَ ذلك التزم ان ينكر العماد الممنوح بالسكب في الكنيسة الارثوذكسيّة للمرضى والمقعدين كما سيأتي بيانهُ

لانّ المقصود من العماد ليس غسل الجسد وتطهيره من الادران بل الدلالة الحسّية على ما يتمّ في النفس من غسل الخطايا ومغفرتها كما قال القديس بطرس في رسالته الاولى (٣ : ٢١) : « المعمودية المراد بها لا ازالة القذر عن الجسد بل اختبار الضمير الصالح لدى الله ». وكما اوضح ذلك ايضاً التعليم المسيحي لاخوتنا الارثوذكس (٢ اذ قال : « سؤال ٩٢ : لاّية غاية يعتمد الانسان. جواب : لكي يغتسل من خطاياه اغتسالًا سِرّيًا وينال الحياة الابدية » . ومن هذا نستنتج قائلين : سواء مُنح العماد بالتغطيس او بالسكب يدلّ العمل المنظور دلالة حسّية واضحة على ان النفس غُسلت من خطاياها اغتسالًا سِرّياً ونالت الحياة الروحية حياة البرارة والحياة الابدية التي هي جزاؤها. ومن ثم يكون العماد بالسكب صحيحاً

ان الكنيسة الغربية كانت قديماً تعمّد بالتغطيس ثم عدلت عن هذه الطريقة لاسبابٍ صوابية منها المحافظة على الحشمة المسيحية خاصّةً اذا كان الشخص المعمَّد من النساء وفي سنّ الصبا وخصوصاً بعد ان أُلغيت في الكنيسة خدمة النساء الشمّاسات (دياكونيس). ومنها تسهيل منح العماد. ومنها منع الخطر المعرَّض لهُ الطفل المولود حديثاً اذا عُمّد بالتغطيس ثلاثاً في البلاد الباردة خاصّةً ان كان ضعيف

---

١) في الصفحة ١٤٧ من كتاب الخلاصة الشهية في اخصّ العقائد والتعاليم الارثوذكسية للعلامة بلاطون مطران مسكو. طُبع سنة ١٨٩٧ بالمطبعة العثمانية في بعبدا

٢) في الصفحة ١٢٨ من كتاب فرائد القلائد في التاريخ والعقائد المطبوع في بطرسبرج سنة ١٨٦٦

البُنية . ومنها ان الاشخاص الذين يُراد عمادهم قد يكونون مُبتلَين بامراض لا تسمح مطلقاً ان يُعمَّدوا بالتغطيس كالمخلَّعين والمدنفين على الموت كما يشير الى ذلك سيادة المطران جراسيموس مسرّة الكلي الوقار في النصّ الذي ستذكرهُ في آخر هذه المقالة . ومنها انهُ قد يُمنح العماد في اماكن ليس فيها ماء كافٍ للتغطيس

ومن المقرَّر الثابت ان الكنيسة في العصور الاولى لنشأتها اذ كانت تعتمد بالتغطيس لم تكن تخطِّئ العماد بالسكب ولم تكن تحكم بعدم صحَّتهِ بل كانت تلتجئ اليه في بعض الظروف وتعتبره صحيحاً وجائزاً . ولدينا على ذلك شهادات قويَّة لا مردّ عليها . فقد ورد في كتاب تعليم الرسل الاثني عشر (١ ما نصُّه : « عمّدوا

١) طُبع هذا الكتاب النفيس في مطبعة المقتطف في القاهرة سنة ١٨٨٦

ولنعلم اهميَّة النصّ الذي نورده عن كتاب تعليم الرسل بخصوص العماد يحسن ان نبيّن للقراء قدر هذا الكتاب فنقتبس شيئاً مما كُتب عنه في ذيلهِ (ص ٢٩ و٣٠) : « هذا كتاب جزيل المعاني . سديد الاركان والمباني . ينطوي على ايضاح قواعد الدين المسيحي السنية والاسرار الالهية . . . مع ما يحتاج الى معرفة مسائلهِ جميع المؤمنين . . . وهو من اعظم الكتب المنسوبة للآباء الرسوليين . . . وقد قال معلّم تاريخ الكنيسة بمدرسة ابردين اللاهوتية من اعمال اسكوتلاندا . . . ان هذا الكتاب قد كشف عن حالة الكنيسة المسيحية في المدّة المتوسطة بين العصر الرسولي وبداية حكم الاساقفة او بين بولس الرسول واغناطيوس اسقف انطاكية المتوفى سنة ١١٦ بعد المسيح . . . ان الاشارات الواردة به هي جديرة ان تُلقي نوراً جديداً على سلسلة من النصوص الالهية التي طالما كنا نتمنَّى ايقاع بعض نورٍ عليها كهذا » . وورد في ترجمة الكتاب ما نصُّه : « هذا الكتاب مذكور في تاريخ اوسابيوس الذي مات سنة ٣٤٠ بعد المسيح مع رسالة برنابا ورؤيا يوحنا واعمال بولس والراعي هرماس واعلان بطرس وانجيل العبرانيين وهو منسوب للعصر الرسولي لكنه غير مقبول بين الكتب القانونية [يريد المترجم بالكتب القانونية الكتب المقدسة المنزلة] . وبعد ما ضاع من الوجود ولم يبقَ منه الَّا بعض اقتباسات واردة في كتاب برنابا وكتاب قوانين الرسل قد اكتشف الاسقف ابونيوس نسخةً منه مكتوبة باللغة اليونانية في مكتبة دير اوغسطينوس بالاستانة في اواخر سنة ١٨٨٣ . . . وبعد استيفاء البحث فيه من العلماء المدققين قد اجمع رأيهم على انه كُتب بين سنة ٨٠ و١١٠ بعد المسيح . ومن قال انه كتب في سنة ٩٦ فهو غير بعيد عن الحقّ . ومضامينه ثمينة جدًّا لانها تعرب اعراباً نيّرًا جدًّا عن حال حياة الكنيسة المسيحية في الوقت الذي كتب فيه . ولهذا السبب قد قال بعض المدققين انه اثمن كتابات الآباء الرسوليين ما عدا رسالة اقليمنضوس الى الكورنثيين الذي مات سنة ١٠١ بعد المسيح . . . [يريد الرسالة الاولى التي وجهها اكليمنضوس الى الكورنثيين] . اما النسخة الوحيدة الموجودة من هذا الكتاب الى الآن فالمظنون انها كتبت مذ سنة ٨٠٠ بعد المسيح » آه

باسم الآب والابن والروح القدس في ماء حيّ . وان لم يكن عندك ماء حيّ فعمِّد بماء آخر . وان لم تقدر في ماء بارد ففي حامٍ . وان لم يكن عندك ما يكفي من احدهما فاسكب على الراس ثلاث مرات ماء باسم الآب والابن والروح القدس » . وجدير بالاعتبار ان كتاب تعليم الرسل لم يخصّص المرضى بل يعمُّ الجميع

ونعلم من سفر اعمال الرسل واعمال الشهداء ومن تاريخ الكنيسة ان العماد بالسكب دون التغطيس كان مقبولاً ومستعملاً في العصر الاول للكنيسة فكانت تعتبرهُ صحيحاً يغفر الخطايا ويمنح النعمة المبرِّرة والحياة الروحية . فقد ورد في سفر اعمال الرسل (١٦ : ٣٠—٣٤) ان بولس الرسول اذ كان محبوساً مع سيلا في سجن مدينة فيلبي عمَّد السجّان واهل بيتهِ « فاخذهما (اي السجان) في تلك الساعة من الليل وغسل جراحهما واعتمد من وقتهِ هو وذووه اجمعون . ثم اخذهما الى بيتهِ وقدم لهما مائدة » . ولا ريب في ان بولس لم يعمّدهم بالتغطيس في السجن بل بالسكب . وهكذا فعل القديس بطرس هامة الرسل اذ كان محبوساً في رومية في السجن المسمَّى مامرتين فانه بشَّر بيسوع المسيح حارسَي السجن بروشتوس ومرتينيانوس فآمنا واذ لم يكن بين يدي الرسول ماء رسم اشارة الصليب على صخرةٍ هناك فاستنبط منها ماء وعمّدهما (١ . وكذلك صنع القديس لورنسيوس الشهيد الذي عمّد وهو في السجن لوسيلّوس احد المحبوسين معه . الى غير ذلك مما ورد في اعمال الشهداء وسير القديسين

وماذا نقول عن الثلاثة الآلاف من اليهود الذين اخبر عنهم سفر اعمال الرسل انهم آمنوا بالمسيح بعد أن بشَّرهم بطرس الرسول يوم عيد العنصرة واعتمدوا . واليك نصّ الآيات : « فلما سمعوا نُخِسُوا في قلوبهم وقالوا لبطرس ولسائر الرسل ماذا نصنع ايها الرجال الاخوة . فقال لهم بطرس توبوا وليعتمد كل واحد منكم باسم يسوع المسيح لمغفرة الخطايا فتنالوا موهبة الروح القدس . فالذين قبلوا كلامهُ اعتمدوا فانضمَّ في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف نفس » (اعمال ٢ : ٣٧ و٣٨ و٤١) . فنسأل ما اذا كان عماد هذا العدد العظيم بالتغطيس أوَلا يُستغرب ان يكون هذا الجمع عُمّد فرداً فرداً

١) راجع هذا الخبر في مجموعة بارونيوس في السنة ٢٨ للمسيح المجلد الاول الصفحة ٥٧٩ العدد ٢٤ ومجموعة البولانديست المجلد ٢٧ الصفحة ٣٩٥ العمود الثاني العدد ٣٠ والسنكسار الروماني في ٢ تموز

بالتغطيس في يوم واحد بعد ان كان قد مضى قسم كبير من النهار

فلو افترضنا انَّ في مقاطعة من مملكة الصين الواسعة آلافاً من الوثنيين الموعوظين الذين يبشرهم المرسلون بالايمان المسيحي (١ وانَّ هؤلاء الموعوظين آمنوا بالمسيح لكنهم لم يُمنحوا بعد نعمة سرّ العماد وانَّ عدداً غير يسير منهم وجد بين الجنود في ساحة الحرب والقتال ولم يسمح الوقت ولا قلّة الماء بان يعمَّدوا بالتغطيس فايّ كاهن ارثوذكسي غيور على خلاص النفوس لا يحكم بانه من الضروري منحهم سرّ العماد بالسكب او بالنضح لئلّا يُحرَموا هذه النعمة العظيمة. ومن لا يعترف ويجاهر على رؤوس الملا بان عمادهم بهذه الطريقة هو صحيح ؟

او هل يخطر على بال بشر او يخامر عقل احد من اخوتنا الارثوذكس ان عماد ثلاثمائة مليون من الكاثوليك اللاتين وسواهم الموجودين اليوم في الكنيسة وعماد الملايين الذين عاشوا في العصور الماضية هو غير صحيح بل باطل وفاسد وانهم يُعتبرون غير معمَّدين لمجرّد انهم عُمّدوا بالسكب ؟

وهذه الكنيسة الروسية الارثوذكسية تعترف صريحاً بصحة العماد الذي تمنحه الكنيسة اللاتينية فاذا التجأ اليها احد اللاتين وطلب الانضمام اليها تقبله دون ان تُعيد عماده. والاشدّ غرابةً من ذلك هو ان هذا اللاتيني الذي انضمّ الى الكنيسة الروسية اذا اراد بعدئذٍ ان ينضمّ الى الكنيسة اليونانية فهذه تقبله دون ان تُعيد عماده. أفلا يكون تصرّفها هذا مضادّاً منطقياً لما تدّعيه من بطلان عماد اللاتين بالسكب

ولدينا برهان آخر على صحّة العماد بالسكب وهو ان الذين ينكرونهُ يسلّمون بهِ في بعض الظروف ويأمرون بمنحهِ في وقت الضرورة كما سلّمت بهِ ومنحتهُ الكنيسة في العصور الاولى. قال الشماس جراسيموس مسرّه (وهو سيادة المطران الحالي على الروم الارثوذكس ببيروت) في كتابهِ «الانوار في الاسرار» (الصفحة ٢٧و٢٨ الطبعة الثانية ١٨٨٨) ما نصُّهُ بالحرف:

«امّا نضح الماء او سكبهُ على المعتمدين الذي تستعملهُ الآن الكنيسة الغربيّة

١) في رسالة واحدة من الرسالات العديدة المنتشرة في الصين وهي رسالة نانكين يوجد اليوم نحو ٣٦ الفاً من الموعوظين يُعنى بتبشيرهم المرسلون اليسوعيون المنتمون الى اقليم باريس

تحت اسم المعمودية فنقول فيهِ ما نقول في غيرهِ من امثالهِ وهو ان هذه الكنيسة قد اعتادت ان تجعل ما يخرج عن القانون قانوناً في هذا السرّ وفي غيرهِ. فقد حوّلت معموديتها الى رشّ مستندةً على ان الكنيسة القديمة عمّدت احياناً بالرش. على ان الكنيسة القديمة لم تسمح بهذا النوع الّا في ظروفٍ ضرورية لا مناص منها وعلى الخصوص للمرضى والمقعَدين والمخلّعين الذين لا يمكن تعميدهم بالتغطيس. ومع ذلك فقد كانت صورة المعمودية هذه للمرضى في القرن الثالث موضوع مشاجراتٍ بين مسيحيي ذلك العصر اذ كان القسم الكبير منهم لا يعتبرون المرضى المرشوشين مُعمَّدين وكانوا يطلبون اعادة تعميدهم حتّى ان القديس كبريانوس اضطرّ اخيراً ان يكتب في هذا الموضوع ليترع الخلاف من بينهم ذاهباً الى انَّ سرّ المعمودية لا يعدم قوّتهُ ولا صحّتهُ اذا تُمّم عند الضرورة بالرش وانهُ لا حاجة بعد ذلك الى اعادة التعميد. والكنيسة الارثوذكسيّة ايضاً تتنازل لهذه الاحكام ولا تُعيد معموديّة الذين اقتضت الضرورة تعميدهم بالنضح او بالسكب كالمرضى وامثالهم ولا تعتبر قوة سرّ المعمودية مفقودةً عنهم بسبب النضح ولكنها لا تسمح ولا تقبل باجراء المعمودية على هذه الصورة الّا لدى الظروف التي تقتضيها وهي لا تزال تحسب ذلك خروجاً عن القانون العام ووجهاً اضطرارياً للذين حكمت عليهم طوارق الدهر حتى لا يكونوا بلا تعميد. فضلال الذين يعتمدون بالرشّ ظاهرٌ ولا يحتاج الى اكثر مما ذكرنا الآن في هذا المقام» اه.

فمن كلام سيادته نبرهن ونقول ان الضرورة لا تجعل طريقة استعمال السرّ صحيحة بل تفترض صحتها وتجعلها فقط جائزة. فالضرورة مهما كانت عظيمة لا يمكنها ان تجعل صحيحاً سرّ الافخارستيا مثلاً اذا استُعمل فيهِ خبز الشعير عند ما يتعذّر وجود خبز حنطة. كذلك نقول عن المعمودية. اذا كان التعميد لا يصح بالسكب خارجاً عن الضرورة فالضرورة لا يمكنها ان تجعلهُ صحيحاً. وعليهِ فبما ان العماد يصحّ بالسكب في الضرورة نستنتج بكل حقّ انهُ يصحُّ ايضاً خارجاً عن وقت الضرورة

رئاسة القديس بطرس

توطئة

من المقرَّر انهُ طالما كان السيّد المسيح على الارض رئيساً على الجمعية الجديدة التي اسّسها أعني الكنيسة لم يكن ممكناً لسمعان بطرس ان يتصرَّف بالرئاسة لان الربّ يسوع وهو الرئيس الاوَّل والاعظم كان مقيماً مع التلاميذ ولم يكن بطرس الَّا نائباً عنه ولانَّ السيّد المسيح كان وعدهُ فقط بالرئاسة اذ قال لهُ : « انت الصَّفاة وعلى هذه الصَّفاة سأبني كنيستي . . . وسأُعطيك مفاتيح ملكوت السماوات » (متى ١٦ : ١٨ و١٩) . ومن ثم كان السيّد المسيح يُعدُّ بطرس لهذه الرئاسة ويُدرّبهُ اليها تدريجاً ويعوّد التلاميذ شيئاً فشيئاً ان يشعروا ويفهموا ان بطرس سيكون الرئيس . وذلك لئلَّا يخامرهم الحسد ويداخلهم النفور وتقوم فيما بينهم المباحثات والمجادلات في ايّهم هو الاعظم كما حدث مراراً فالتزم الربّ ان يُوصيهم بان يؤثروا التواضع وان يكون الاكبر فيهم كالخادم

لا يخفى ان التلاميذ كعامّة اليهود لم يكونوا مستعدّين لفهم وقبول ما كان يريد المسيح ان يُبيّنهُ لهم ويعلّمهم اياه . فقد قال لهم في آخر يوم من حياته في العشاء السرّي : « ان عندي كثيراً اقوله لكم ولكنَّكم لا تطيقون حَمْله الآن » (يوحنا ١٦ : ١٢) فبالاحرى لم يكونوا يطيقون فهمه وقبولهُ في بدء كرازته بالانجيل وذلك لانّ افكار اليهود والتلاميذ انفسهم كانت بشريَّةً . فكانوا يعلّلون نفوسهم بمملكة على الارض يكون فيها المسيح ملكاً عظيماً ويكونون هم من كبار المتوظفين . ولهذا السبب كان السيّد المسيح يحتملهم ويقوّم عوَجهم بصبر ويرشدهم بنور تعاليمهِ كما شفى الاعمى تدريجاً ويكشف لهم شيئاً فشيئاً الحقائق والاسرار الالهية وكل ما يتعلق بالمملكة الروحيَّة التي انشأها اي الكنيسة

وهكذا تصرّف المسيح في اعلان رئاسة بطرس على الجمعية التي اسّسها . فانّه تمجّد اسمه رغبةً في حفظ الوفاق والمحبة بين التلاميذ اعلن رئاسة بطرس وبيَّنها رويداً رويداً حتى بلَّغ معرفتها الى الكمال وازال كل شبهة وريب في حقيقتها . فكانت

كالشمس التي يبدو ضوؤها ضئيلاً عند الصباح وتسطع اشعَّتها وتبهر العيون في رائعة النهار

رئاسة القديس بطرس

١ في الاناجيل

عندما ابتدأ يسوع بكرازة الانجيل أتى اليهِ اثنان من تلاميذ يوحنا وكان احدهما اندراوس « وأقاما عنده ذلك اليوم » (يوحنا ١ : ٣٩) . ثم اتى اندراوس بأخيه سمعان الى يسوع . فلما نظر يسوع الى سمعان قال له : « انتَ سمعان بن يونا انتَ تُدعى كيفا[1] الذي تفسيرهُ الصفاة » (يوحنا ١ : ٤٢) ومعنى الصفاة الصخرة الصُّلبة . فاطلاق لقبَ الصفاة على سمعان اوَّل مرَّةٍ رآه يسوع لم يكن الَّا لغايةٍ قصدَها ربُّ الحكمة . وانّما كانت غايتهُ تعالى ان يمهّد السبيل لما سيقوله لهُ في ما بعد في قيصرية فيلبُّس « انت الصفاة وعلى هذه الصفاة سأبني كنيستي وابواب الجحيم لن تقوى عليها » (متى ١٦ : ١٨) ومن ثمَّ منذ ابتداء كرازة الانجيل قد اختار السيد المسيح سمعان بن يونا اساساً للجمعية التي كان يُريد ان ينشئها فلقَّبهُ بالصفاة

ومن ذلك اليوم نرى دائماً سمعان بطرس في مقدّمة الرسل يُشغِل المكانَ الاول بالقول وبالعمل وذلك بتدبير خصوصي من المسيح . ولذا كلٌّ من الانجيليين اذ يذكر اسماء الرسل يصدّرها دائماً باسم سمعان بطرس . فاوّل الذين اختارهم يسوع ليكونوا تلاميذه كان سمعان بطرس « وفيما كان يسوع ماشياً على شاطئ بحر الجليل رأى اخوين وهما سمعان المدعو بطرس واندراوس اخوهُ يُلقيان شبكةً في البحر لانّهما كانا صيادين فقال لهما : اتبعاني فاجعلكما صيّادَي الناس » (متى ٤ : ١٨ و١٩ ومرقس ١ : ١٦) . ومما يُلفِت انظارنا هو انه لم يُذكر في الاناجيل ان المسيح دخل الى بيت احد من الرسل الّا الى بيت سمعان بطرس « واتى يسوع الى بيت بطرس فرأى حماته ملقاة

---

١) كيفا بالسريانية الكلدانية وكانت لغة السيد المسيح ومعناها الصفاة اي الصخرة وباليونانية Πέτρα وباللاتينية Petra « پترا » ومنها أُخذ الاسم Petrus بطرس في هيئة العَلَم المذكَّر « وجعل لسمعان اسم بطرس » (مرقس ٣ : ١٦)

بحُمَّى فلمس يدها ففارقتها الحمَّى فقامت وصارت تخدمهم » (متى ٨ : ١٤ و١٥ ولوقا ٤ : ٣٨ و٣٩ ومرقس ١ : ٢٩—٣١) . وحينما اختار يسوع الاثني عشر رسولًا يذكر الانجيليون سمعان بطرس في المقام الاول « وهذه اسماء الاثني عشر رسولًا : الاوّل سمعانُ المدعو بطرس » (متى ١٠ : ٢ ومرقس ٣ : ١٦ ولوقا ٦ : ١٤) . فهو الاول ليس بالترتيب فقط لكن بالرتبة ايضاً . ولما اراد يسوع ان يعلّم الشعب المزدحم على شاطئ بحر جنّاسر « رأى سفينتين راسيتين في البحيرة . . . فركب احدى السفينتين وكانت لسمعان وسأله ان يتباعد قليلًا عن البرّ وجلس يعلّم الجموع من السفينة » (لوقا ٥ : ٢ و٣) . فاراد المسيح بفعلهِ هذا ان يُفهِمنا انَّ علم الايمان والآداب في بحر هذا العالم المضطرب سيصدر في المستقبل من سفينة بطرس اي من الكنيسة التي يرأسها بطرس وخلفاؤه . ولكي يؤيّد المسيح هذه الحقيقة صنع اعجوبة صيد السمك المرموز بهِ الى صيد النفوس فانّه « لمَّا فرغ من الكلام قال لسمعان : تقدَّم الى العمق وألقوا شباككم للصيد . فاجاب سمعان وقال لهُ : يا معلّم قد تعبنا الليل كلَّهُ ولم نُصِب شيئاً ولكن بكلمتك ألقي الشبكة » (لوقا ٥ : ٤ و٥) ويخبر الانجيلي انهم « احتازوا من السمك شيئاً كثيراً حتى تخرَّقت شبكتهم » (لوقا ٥ : ٦) فلمَّا رأى ذلك سمعان بطرس خرَّ عند ركبتي يسوع قائلًا أُخرُج عنّي يا ربّ فاني رجل خاطئ لانَّ الانذهال اعتراه هو وكلّ من معه عند صيد السمك الذي اصابوه . وكذلك يعقوب ويوحنَّا ابنا زبدى اللذانِ كانا رفيقَي سمعان . فقال يسوع لسمعان : لا تخفْ فانّك من الآن تكون صائدًا للناس » (لوقا ٥ : ٨—١٠) . فلماذا اتمَّ يسوع كل ذلك في سفينة بطرس ولماذا وجّه الخطاب الى سمعان بطرس مع ان ابني زبدى يعقوب ويوحنَّا كانا معهُ ؟ أليس لانَّ يسوع اختار بطرس ليجعله رأس الكنيسة التي يُنشئها لخلاص النفوس ؟

ثم اذا عيّن يسوع بعض الرسل ليرافقوه في امرٍ ما كان دائماً بطرس من جملتهم وفي مقدَّمتهم . كما جرى اذ دخل يسوع بيت رئيس المجمع ليُقيم من الموت الصبيَّة « ولم يدَعْ احداً يتبعهُ الَّا بطرس ويعقوب ويوحنَّا اخا يعقوب » (مرقس ٥ : ٣٧ ولوقا ٨ : ٥١) . وكذلك في تجلّي الربّ على الجبل لم يُصعِد معهُ الَّا بطرس ويعقوب ويوحنا ليعاينوا مجده . « وبعد ستة أيامٍ اخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا اخاه فاصعدهم الى جبلٍ عالٍ على انفراد وتجلّى قدّامهم » (متى ١٧ : ١ و٢) . فالثلاثة

عاينوا مجد الربّ يسوع الَّا ان بطرس هو الذي يتكلّم باسم الثلاثة قائلًا : « يا ربّ حسنٌ لنا ان نكون ههنا » (متى ١٧ : ١—٩ ومرقس ٩ : ١—٨ ولوقا ٩ : ٢٨—٣٦) . وفي نزاع المخلص في بستان الزيتون لم يستصحب الى داخل البستان الَّا هؤلاء الثلاثة ليشاهدوا حزنه وأوَّلهم بطرس « واخذ معه بطرس وابني زبدى وطفق يحزن ويكتئب » (متى ٢٦ : ٣٧ ومرقس ١٤ : ٣٣) . وإذ كانت عيونهم ثقيلة من النعاس والحزنِ لم يوجّه يسوع الكلام الَّا الى بطرس لانّه الزعيم . « فقال لبطرس : أهكذا لم تقدروا ان تسهروا معي ساعة واحدة » (متى ٢٦ : ٤٠) وفي انجيل مرقس (١٤ : ٣٧) يخصّص بالعتاب بطرس « فقال لبطرس : يا سمعان هل انت نائم أو لم تقدر ان تسهر ساعة واحدة » كأنّه اذا عاتب بطرس عاتبَ الجميع لانّه يمثّلهم بما انه الوكيل . ولمَّا قُبض على يسوع في بستان الزيتون « وتركه التلاميذ كلهم وهربوا » (متى ٢٦ : ٥٦) اعتبر بطرس بما انه الوكيل انّ وظيفته تلزمه بأن لا يفارق المعلّم « وتبعهُ بطرس من بعيد الى دار رئيس الكهنة ودخل وجلس مع الخدّام حتى ينظر العاقبة » (متى ٢٦ : ٥٨ ومرقس ١٤ : ٥٤)

وممَّا يُثبت ان بطرس كان مهيَّأً ليكون نائب المسيح والرئيس على الرسل ما ورد مراراً في الانجيل انه كان يتقدَّم سائر الرسل في الكلام ويجيب يسوع . فان رغبوا الى يسوع ان يفسّر لهم ما يُلقيه عليهم من الامثال والاقوال كان بطرس يسألهُ ذلك : « فاجاب بطرس وقال له فسّر لنا هذا المثل » (متى ١٥ : ١٥) . وان سألهُ اكثر من واحد من الرسل فيذكر الانجيليون دائماً بطرس قبل غيره بما انه المتقدم والرئيس كما حدث اذ تنبّأ يسوع عن خراب الهيكل : « سألهُ بطرس ويعقوب ويوحنا واندراوس على انفراد : قل لنا متى يكون هذا » (مرقس ١٣ : ٣ و٤) . ولمَّا حرَّض المسيح الرسل على ان يكونوا كعبيدٍ ينتظرون سيّدهم ليفتحوا له « قال له بطرس : يا ربّ ألنا تقول هذا المثل أم للجميع » (لوقا ١٢ : ٤١) . ولما قال يسوع انه يعسر على الغني دخول ملكوت السماوات نرى بطرس يُسرع ويتكلّم باسم الجميع : « اجاب بطرس وقال له : هوذا نحن قد تركنا كل شيءٍ وتبعناك » (متى ١٩ : ٢٧ ومرقس ١٠ : ٢٨ ولوقا ١٨ : ٢٨) . ولما اوصى السيد المسيح الرسل ان يغفروا لمن اساء اليهم مَن يا تُرى من الرسل يستوضح المسيح عن هذا الفرض والالزام ؟ لا احد الَّا ذاك

الرسول الذي كان اعدَّهُ الربّ ليكون رئيساً عليهم: «حينئذٍ دنا اليهِ بطرس وقال له يا ربّ كم مرَّةً يخطأ اليَّ اخي فاغفر لهُ. أإلى سبع مرَّات. فقال له يسوع لا اقول لك الى سبع مرَّات بل الى سبعين مرَّة سبع مرات» (متى ١٨: ٢١و٢٢). وعندما تكلَّم السيّد المسيح عن إعطاء جسدهِ مأكلاً ودمهِ مشرباً استثقل بعض التلاميذ كلامه ورجعوا الى الوراء وتركوه «فقال يسوع للاثني عشر: ألعلّكم انتم ايضاً تريدون ان تمضوا» (يوحنا ٦: ٦٨) فمن منهم يا ترى يعطي الجواب المعزّي قلب يسوع؟ لا ريبَ في انهُ بطرس «فاجاب سمعان بطرس: يا ربّ الى من نذهب. ان كلام الحياة الابدية هو عندك وقد آمنَّا نحن وعرفنا انكَ انت المسيح ابن الله» (يوحنا٦: ٦٩و٧٠). هذا هو ايمان بطرس الحيّ القويم الثابت. وقد منحهُ الله موهبة هذا الايمان الغير المتزعزع لانه كان اختاره ليؤسس الكنيسة عليه كعلى صخرة ثابتة

وامتياز بطرس هذا ظهر ليس فقط في اقوال المسيح واعماله وعَلِمَ بهِ التلاميذ لكنه اجتاز جماعتهم وتحققه الغرباء والاجانب أنفسهم. فلما اراد الذين يَجْبون الدرهمَين أن يستوفوهما من يسوع لم يكلّموا الّا بطرس لِما اشتهر عنه انه المقدَّم في الرسل. يخبرنا الانجيل انهم «لمَّا أتوا الى كفرناحوم دنا الذين يجبون الدرهمين الى بطرس وقالوا لهُ. أما يؤدّي معلّمكم الدرهمين» (متى ١٧: ٢٣). ومما هو جدير بالاعتبار ان المسيح اراد ان يؤدّى عنه وعن بطرس فقط. وما ذلك الّا لانَّهُ كان نائبه. «ولما دخل البيت سبقهُ يسوع قائلاً ما تظنُّ يا سمعان ممَّن يأخذ ملوك الارض الخراج او الجزية أمِن بنيهم أم من الغرباء. قال من الغرباء. قال لهُ يسوع: فالبنون اذاً أحرار ولكن لئلّا نشككهم امضِ الى البحر وألقِ الشصّ فاوّل سمكة ترفعُها افتح فاها فتجد استاراً فخذهُ وأدِّ عني وعنك» (متى ١٧: ٢٤–٢٦). وإذ أرسل يسوع تلميذين ليُعِدّا الفصح كان أوّلهما بطرس (لوقا ٢٢: ٨) ولمَّا غسل المسيح ارجل التلاميذ كان بطرس أول من تقدَّم اليه يسوع «فتقدّم الى سمعان بطرس» (يوحنا ١٣: ٦)

قد تحقَّقنا من كل ما سبق ان المسيح قدّم دائماً سمعان بطرس على جميع التلاميذ والرسل. وقد علم بذلك بطرس فتراه يتصرّف دائماً بمقتضى الرئاسة التي وعده بها المسيح. فيتكلّم ويعمل ويسأل ويجيب كمن لهُ وظيفة خصوصية والرتبة الاولى بين الرُّسل. ونشاهد سائر الرسل يحسدون بطرس على تفضيل يسوع له ويتباحثون مرارًا

«فيمن هو الاعظم بينهم» (مرقس ٩: ٣٣ ولوقا ٢٢: ٢٤) وعلى الخصوص يعقوب ويوحنا ابنا زبدى. فبما ان يسوع كان استصحبهما مرارًا مع بطرس كان لهما الامل اكثر من غيرهم ان يتقدَّما عليه. فطلبا بواسطة امّهما ان يكون الواحد عن يمينهِ والآخر عن يسارهِ في مُلكهِ «حينئذٍ دنت اليهِ امُّ ابني زَبَدَى مع ابنيها ساجدةً لهُ تسألهُ شيئاً. فقال لها ماذا تريدين. قالت لهُ مُر أن يجلس ابناي هذانِ احدهما عن يمينك والآخر عن يسارك في مُلكك» (متى ٢٠: ٢٠ و٢١ ومرقس ١٠: ٣٥–٣٧). لكنّ عهد الله لا يُنقَض فانّه تعالى كان اختار بطرس ليكون أساساً لا لمملكة دنيوية زائلة بل لجمعية روحية هي الكنيسة فيبقى بطرس أساسها ورئيسها. «فاجاب يسوع وقال انكما لا تعلمانِ ما تطلبانِ. اتستطيعانِ ان تشربا الكأس التي انا مزمعٌ ان اشربها: فقالا لهُ نستطيع. فقال لهما أمَّا كأسي فتشربانها وأمَّا جلوسكما عن يميني او يساري فليس لي ان اعطيهُ الّا للذين أُعِدَّ لهم من قبل ابي» (متى ٢٠: ٢٢–٢٣ ومرقس ١٠: ٣٨–٤٠). فاذًا الرئاسة على الكنيسة أُعدّت لبطرس من قبل الله الآب

رئاسة بطرس ليست شرفية فقط بل رئاسة سلطة

ورُبَّ معترض يقول اني اعترف برئاسة بطرس في مجتمع الرسل لاتضاح هذه الرئاسة في الاناجيل المقدسة لكني افهم بها رئاسةً شرفية ليس الّا

فيلزمنا ان نبحث ونرى ما لهذا القول من الصحَّة: ان المسيح اذ اقام رئيساً على كنيسته لم يلتفت الى الشرف بل الى الخدمة وتضحية الذات لاجل ابناء الكنيسة. فقد قال عزّ اسمهُ: «من اراد ان يكون فيكم اوَّل فليكن لكم عبدًا. كما ان ابن البشر لم يأتِ ليُخدَم بل ليخدُم وليبذل نفسه فداء عن كثيرين» متى ٢٠: ٢٧و٢٨ و٢٣: ١١ ومرقس ٩: ٣٤ و١٠: ٤٣) فيلزم ان يكون نائب المسيح كمعلّمهِ عبدًا او خادماً. ولكن هذا لا يمنع ان تكون له السلطة في الكنيسة بالنيابة عن ابن الله. كما بيّن ذلك السيد المسيح. «فانّهُ لما جاء يسوع الى نواحي قيصرية فيلبُّس سأل تلاميذهُ قائلاً: مَن تقول الناس ان ابن البشر هو» (متى ١٦: ١٣) فسؤال يسوع هذا لم يكن ليعلم ما كان يعلمه بالمعرفة التي أفاضها على ناسوتهِ اللاهوتُ المتَّحد بهِ جوهريًّا بل لتتسنَّى لبطرس الفرصة بان يعترف بلاهوت المسيح فيَعِدهُ بالرئاسة على الكنيسة ويقلّدهُ

فيها السلطة المطلقة: «قال لهم يسوع وانتم من تقولون إني هو. أجاب سمعان بطرس قائلًا: انت المسيح ابن الله الحيّ» (متى ١٦: ١٥ و١٦). فاعتراف بطرس هذا بألوهية يسوع كان وحياً لهُ من الآب لانّ الله كان اصطفاه منذ الازل ليكون هامة الرسل واساس الكنيسة ومعلّم المؤمنين. «فاجاب يسوع وقال لهُ: طوبى لك يا سمعان ابن يونا فانّهُ ليس لحمٌ ولا دمٌ كشف لك هذا لكن أبي الذي في السماوات» (متى ١٦: ١٧). فماذا جازى يسوع بطرس لقاء اعترافه بألوهيتهِ. فلنسمعنّ المسيح يتكلّم بسلطانه الالهي ويقول باحتفال لبطرس بمرأى ومسمع من جميع الرسل: «وأنا اقول لك: انت الصفاة وعلى هذه الصفاة سأبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها» (متى ١٦: ١٨) يقول المسيح: انا ابن الله أعِدك بأني سأجعلك نائبي على الارض واساس كنيستي ولا احد يقوى على نقض وعدي هذا. ومعلوم ان الكنيسة هي بناءٌ أدبيّ اي جمعية منظورة ولا تقوم الجمعية ولا تثبت ما لم يكن لها رأس منظور يدبّرها وسلطة تضمّ اعضاءها في الوحدة. ومن ثم فكما ان البناء المادّي لا يكون ثابتاً ما لم يقم على اساس متين كذلك كنيسة المسيح التي هي جمعية بشرية روحية تحتاج بعد صعود منشئها الى السماء الى اساس تقوم عليه. فيؤكد يسوع ان الاساس هو بطرس. ولهذا قال لهُ يسوع «وسأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات فكل ما ربطتهُ على الارض يكون مربوطاً في السماوات وكلّ ما حللتهُ على الارض يكون محلولًا في السماوات» (متى ١٦: ١٩). فكما انه اذا سلّم صاحب الامر والنهي مفاتيح المدينة لشخصٍ ما يُسلّمه المدينة بأسرها ويجعلها تحت سلطانهِ كذلك اذ سلّم المسيح مفاتيح كنيستهِ لبطرس جعلهُ رئيساً مطلقاً عليها وفوّض اليه كمال السلطان على ان يحلّ ويربط اي ان يسنّ شرائع ويُلزم المرؤوسين بحفظها ويعاقب من لا يحفظها وان يصنع كل ما يؤول الى فائدة الكنيسة بحسب اختلاف الازمنة على ما يرتئيه. لانّ المسيح بهذا الاطلاق وهذا التعميم «كل ما ربطتَه. كل ما حللتَه» اراد ان يفوّض الى بطرس مُطلَق الامر والنهي في كنيسته ويجعله صاحب الحلّ والعقد بحيث يكون ليس فقط جميع المؤمنين بل سائر الاساقفة في الدنيا قاطبةً تحت سلطته حتى بقيّة الرسل انفسهم

ولا يقدح برئاسة بطرس وسلطتهِ ما قالهُ لهُ المسيح بُعيد ذلك: «اذهب خلفي

يا شيطان» لانّ لفظة الشيطان في هذا الموضع لا يُراد بها ابليس بل المقاوم. تؤيّد هذا المعنى قرائنُ الكلام. فانه لمّا تنبأ المسيح عن آلامهِ «أخذه بطرس نحوه وبدأ يزجره قائلًا: حاشى لك يا ربّ لا يكون لك هذا» (متى ١٦: ٢٢) وكان قول بطرس هذا صادرًا عن فرط محبته ليسوع. لكنهُ بما ان محبتهُ هذه كانت بشرية استحقّ توبيخ الربّ فقال لهُ يسوع: اذهب خلفي يا شيطان فقد صرتَ لي شكًّا لانك لا تفطن لما لله لكن لما للناس» (متى ١٦: ٢٣). فلا منافاة اذًا بين هذا القول وقول السيد المسيح سابقاً انهُ سيقلّدهُ السلطان الاول على الكنيسة

ولا يقدح ايضاً برئاسة بطرس وسلطته المطلقة انهُ ضعُفَ عزمُهُ في الآلام وانكر انهُ يعرف يسوع. فانهُ خطِئَ بدون ريب لأنّهُ نكر ربّهُ بلسانهِ ولكن لم يرتَبْ به في الباطن. يؤيّد قولنا هذا ان المسيح بعد ان تنبأ للتلاميذ انّهم سيتركونهُ قال لبطرس: «سمعان سمعان هوذا الشيطان سأل ان يغربلكم مثل الحنطة. لكني صلّيت من اجلك لئلّا ينقص ايمانك وانتَ متى رجعتَ فثبّت اخوتك» (لوقا ٢٢: ٣١ و٣٢) فاذا كان المسيح نفسه قد صلّى لاجل ايمان بطرس خاصةً فمن المحال ان لا يُستجاب في صلاته وبالتالي من المحال ايضاً ان لا يكون بطرس وخلفاؤهُ معصومين من كل غلط في الامور المتعلّقة بالايمان والّا فكيف يمكنهم تثبيت المؤمنين على الحق ان لم يكونوا ثابتين عليهِ. ومن الظاهر ظهور الشمس ان الذي يأمره الله بتثبيت غيره في الحقّ لا يستطيع إنفاذ هذه الوصية الالهية الّا ان يكون هو ثابتاً فيه ثباتاً لازماً لا يتزعزع وذلك بما يمنحه الله من المعونة والعضد بما انهُ نائبهُ على الارض ويعلّم باسمهِ

ولكن لماذا يا تُرى سمح الله بسقوط بطرس؟. ان الله سمح بذلك لغايات. اوّلها لكي يتعلم بطرس الاتضاع في الرئاسة وعدم الثقة بقوتهِ الذاتية بل أن يتكل على نعمتهِ تعالى كما علّم المسيح الرسل اذ قال لهم: «بدوني لا تستطيعون ان تعملوا شيئاً» (يوحنا ١٥: ٥). ثانياً رغب المخلص في ان يكون بطرس مِثالًا للتائبين وقدوةً لنا في الندامة الحقيقية على خطايانا. «فالتفت الرب ونظر الى بطرس» (لوقا ٢٢: ٦١) نظرَ يسوع الى بطرس نائبهِ نظر التوبيخ والرحمة والنعمة. «فذكر بطرس كلام يسوع الذي قالهُ لهُ انه قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات فخرج الى خارجٍ وبكى بكاء مُرًّا» (متى ٢٦: ٧٥ ومرقس ١٤: ٧٢ ولوقا ٢٢: ٦٢).

ثالثاً اراد يسوع ان يتعلم بطرس بالفعل والاختبار ان يكون كمعلّمهِ رحوماً نحو الخطأة(١ كان سأل بطرس المسيح سابقاً « يا ربّ كم مرّة يخطأ اليّ اخي فأغفر لهُ ألِى سبع مرات . فقال لهُ يسوع : لا اقول لك الى سبع مرات بل الى سبعين مرة سبع مرات » (متى ١٨ : ٢١و٢٢) . فسقوطهُ علّمهُ بالتجربة الرحمة والمغفرة . حسبما قال بولس الرسول عن المسيح (عبرانيين ٤ : ١٥) : « انّ الحبر الذي لنا ليس ممّن لا يستطيع ان يرثي لأمراضنا بل قد جُرّب في كل شيء مثلنا ما خلا الخطيئة » . امّا بطرس فقد جُرّب وسمح الله بسقوطهِ في التجربة ليعرف ان يرثي للخطأة

بطرس بعد قيامة المسيح

علينا الآن ان نشاهد بطرس بعد قيامة المسيح لنتحقق ان يسوع عامله كرئيس على الرسل حتى بعد خطيئتهِ وأنّ تصرُّف بطرس كان كمن له السلطة بينهم

شاهدنا بطرس يندم ندامةً شديدة على خطيئتهِ « بكى بكاءً مُرًّا » . فقبل يسوع ندامته وغفر له وبيَّن لهُ ذلك اذ تراءى له على انفراد بعد القيامة قبل جميع الرسل والتلاميذ ليعزّيهُ في حزنهِ وبكائهِ كما ورد في لوقا « وهم يقولون لقد قام الرب في الحقيقة وتراءى لسمعان » (لوقا ٢٤ : ٣٤) « تراءى لكيفا ثم للاحد عشر » (١ كورنتس ١٥ : ٥) . فلماذا تراءى لكيفا اي لبطرس خاصةً؟ أليس مراعاةً لمقامهِ بما انهُ نائبهُ . فاراد المسيح ان يؤيد سلطته حالًا بعد القيامة ويزيل ما قد يكون خامر عقول التلاميذ من سقوطهِ

الملاك في القبر وبطرس . بطرس والتلاميذ

وممّا يحسن الاشارة اليهِ هو ان الملائكة انفسهم بطريقة تكلُّمهم مع النسوة بيّنوا تقدُّم سمعان بطرس بين التلاميذ ورئاستهُ عليهم . والدليل على ذلك هو انه يوم قيامة السيد المسيح لمّا ذهبت النساء الى القبر ودخلنهُ ولم يجدنَ جسده المقدس بل رأينَ شاباً اي ملاكاً بهيئة شابٍّ اوصاهنّ الملاك ان يقلنَ للتلاميذ ولبطرس ان الرب قد قام « فاذهبنَ وقُلنَ لتلاميذهِ ولبطرس انه يسبقكم الى الجليل وهناك ترونهُ كما

١) « يا بطرس انّ كلّ ما كابدته قبل الآلام من عاصفة الجحود كان ذلك بسماح المسيح وعنايتهِ الالهية لكي تماثلهُ في إشفاقهِ » (المناون للروم الارثوذكس ص٢٥٢ العمود ٢)

قال لكم » (مرقس ١٦ : ٧) . فنسأل ما سبب تخصيص الملاك بطرس . أليس لعلمه ان بطرس كان الرئيس في جماعة التلاميذ وانه حان الوقت لهذا الرئيس ان يعمل بمقتضى وظيفتهِ

ثم انّ التلاميذ بتصرُّفهم يعترفون برئاسة بطرس . فهذه مريم المجدلية إذ لم تجد جسد الرب في القبر تُسرع وتخبر بطرس « فاسرعت وجاءت الى سمعان بطرس » (يوحنا ٢٠ : ٢) فلماذا تُسرع الى بطرس مع علمها بانّه انكر الربّ في الآلام الّا لعلمها بانّه الرئيس . ثم ان سلطة بطرس ورئاسته كانتا تضطرّانهِ ان يبادر الى القبر ويبحث عمّا حدث وهكذا فعل « فخرج بطرس والتلميذُ الآخر [يوحنا] وأقبلا الى القبر وكانا مُسرعَين معاً فسبق التلميذ الآخر بطرس وجاء الى القبر اولًا » (يوحنا ٢٠ : ٣ و٤) . ومما هو جدير بالاعتبار ان يوحنا لم يدخل القبر رغماً عن رغبتهِ في الاطلاع على الحقيقة بل انتظر ان يدخل بطرس قبله بما انه الرئيس واحتراماً لوظيفته « ثم جاء سمعان بطرس يتبعه ودخل القبر فرأى الاكفان موضوعة . . . فحينئذٍ دخل التلميذ الآخر الذي جاء اولًا الى القبر » (يوحنا ٢٠ : ٦ — ٨) . امّا لوقا فانهُ لم يذكر يوحنا بل اكتفى بذكر بطرس لانه رئيس جماعة الرسل « فقام بطرس واسرع الى القبر » (لوقا ٢٤ : ١٢)

إرعَ خرافي إرعَ غنمي

انّ الامر الذي يبيّن خاصةً رئاسة بطرس لا الشرَفية بل الفعلية التي تخوّله السلطة في تدبير الكنيسة هو ما حدث عند ما تراءى يسوع للتلاميذ على بحر طبرية وقد اخبرنا بهِ يوحنا الانجيلي وكان حاضرًا : « كان قد اجتمع سمعان بطرس وتوما الذي يُقال له التوأم ونتنائل الذي من قانا الجليل وابنا زبدى واثنان آخران من تلاميذه . فقال لهم سمعان بطرس : انا ذاهب لأصطاد . فقالوا له : ونحن ايضاً نجيء معك » (يوحنا ٢١ : ٢ و٣) . في هذه الآية دليل على انقياد التلاميذ لبطرس . ثم تراءى لهم يسوع على الشاطئ واصطادوا ذلك الصيد العجائبي وعرفوا يسوع وانتهوا الى الشاطئ وكان بطرس سبق الجميع سباحةً لفرط محبته ليسوع . « فبعد ما تغدّوا قال يسوع لسمعان بطرس : يا سمعان بن يونا اتحبّني اكثر من هؤلاء . قال لهُ نعم يا ربّ انتَ تعلم اني احبّك . قال لهُ ارعَ خرافي . قال لهُ ثانيةً يا سمعان بن يونا اتحبّني . قال لهُ نعم

يا ربّ انت تعلم اني احبك. قال لهُ ارعَ خرافي. قال لهُ ثالثةً يا سمعان بن يونا أتحبني. فحزن بطرس لانّه قال لهُ ثالثةً اتحبني فقال لهُ يا ربّ انت تعلم كلّ شيءٍ وانت تعلم اني احبّك. فقال له ارعَ غنمي» (يوحنا ٢١ : ١٥-١٧). فلماذا يا تُرى يسأل السيّد المسيح بطرس ثلاث مرّات اتحبني ؟. نجيب ان يسوع اراد ان يمهّد لبطرس السبيل ليجاهر بمحبته لهُ ثلاثاً كما انهُ كان انكرهُ ثلاثاً. وبهذا الاعتراف وبهذه المجاهرة اعاد يسوع لبطرس شرفه امام التلاميذ بما انه رأس الكنيسة واثبت له الاعتبار اللائق والواجب لهُ امام المؤمنين (١

امّا الامر الاعظم اهمية فهو ان السيّد المسيح في هذا المقام قلّد القديس بطرس نهائيًا ما كان وعدهُ بهِ من الرئاسة العامّة على كنيستهِ بأسرها. فانّه بهذا الخطاب « ارعَ خرافي. ارعَ غنمي» اختصّه دون سائر التلاميذ وناداهُ باسمهِ قائلًا ثلاث مرات يا سمعانُ بن يونا اتحبني اكثر من هؤلاء. وامرهُ قائلًا: ارعَ خرافي اي تولَّ امرهم وكن رئيساً عليهم. ولا يخفى انّ الرعاية في ما يختصّ بالبشر لا تستعمل الّا في معنى الرئاسة كما ورد في متى (٢ : ٦) « المدبّر الذي يرعى شعبي اسرائيل». ومن ذلك قول السيد المسيح: « انا الراعي الصالح » (يوحنا ١٠ : ١١) فعبّر عن رئاسته على الكنيسة بلفظ الراعي. ومثلهُ قول هامة الرسل « رجعتم الآن الى الراعي الى اسقف نفوسكم » (١ بطرس ٢ : ٢٥). ثم ان قول المسيح «ارعَ خرافي ارعَ غنمي» يعني الخراف والغنم المختصّة بهِ تعالى ومعلومٌ ان المراد بخراف المسيح وغنمهِ جمهور المؤمنين باسرهم فيُراد بالخراف التي هي اولاد الضأن المرؤوسون من عامّة الشعب وبالغنم التي هي الامّهات الرؤساء من الاساقفة وغيرهم. فاتّضح من ذلك كلهِ ان السيد المسيح قد اقام القديس بطرس رئيساً عامًّا على الكنيسة كافةً وفوّض اليهِ رعاية كل مرؤوس وكل رئيس في الكنيسة على الاطلاق لكي يرعاهم اي يسوسهم في كل ما يتعلق بالامور الدينية الآئلة الى خلاص النفوس والسعادة الابدية اي في الايمان والاعمال الصالحة

---

١) « ان المسيح بسؤالهِ لهُ ثلاثاً يا بطرس اتحبّني قوّم الجحدات الثلاث ». «انّ السيّد لكي يمحو إنكارك إيّاه ثلاثاً قبل الآلام اثبت لك المحبة بسؤالهِ اياك ثلاثاً بنُطقهِ الالهي » (المناون للروم الارثوذكس ص ٢٤٤ العمود ٢ وص ٢٥٣ العمود ٢)

رئاسة القديس بطرس

٢ في سفر اعمال الرسل

بقي علينا ان نبحث عن تصرّف بطرس بعد صعود المسيح الى السماء أكانَ تصرُّفَ رسولٍ مماثلٍ لسائر الرسل ام تصرُّف رئيسٍ لهُ ملء السلطة في الكنيسة

يذكر لوقا في بدء سفر الاعمال (١ : ١٢ و١٣) ان الرسل رجعوا من جبل الزيتون الى اورشليم واقاموا في العلّية. فيسمّي بطرس قبل جميع الرسل كما صنع كلّ الانجيليين وما ذلك الّا بالنظر الى وظيفته وسلطته: « ولمّا دخلوا صعدوا الى العلية التي كانوا مقيمين فيها بطرس ويعقوب ويوحنا الخ ». ثم نرى بطرس يبتدئ باستعمال وظيفته فيرأس انتخاب مَن يقوم مكان يهوذا الاسخريوطي. « وفي تلك الايام قام بطرس في وسط الاخوة وكان عدد الاسماء جميعاً نحو مئة وعشرين » (اعمال ١ : ١٥) وخطب في الجماعة موضّحاً لهم الصفات المرغوبة في من ينتخبونه. ثم انه في عيد العنصرة اذ حلّ الروح القدس على التلاميذ واجتمع جمهور اليهود حول العلّية نُشاهدُ القديس بطرس قائماً امام الشعب يخطب فيهم ويشرح لهم آيات الكتاب المقدس التي تشير الى حلول الروح القدس وفيضان النعم ويبكّتهم بجرأة على انهم صلبوا المسيح وقتلوه بأيدي الأثمة: « فقام بطرس مع الاحد عشر رسولًا ورفع صوتهُ وخاطبهم قائلًا: ايها الرجال اليهود ... » (اعمال ٢ : ١٤). « فلمّا سمعوا نُخسوا في قلوبهم وقالوا لبطرس ولسائر الرسل: ماذا نصنع ايّها الرجال الاخوة. فقال لهم بطرس: توبوا وليعتمد كل واحد منكم ... » (اعمال ٢ : ٣٧ و٣٨). فترى من كل ما ذكرنا ان بطرس يتصرّف كمن لهُ المقام الاول والرئاسة والسلطة

الآيات التي صنعها بطرس وخطابهُ في الهيكل ثمّ امام المحفل

ولكي يرفع الله مقام بطرس امام جماعة المؤمنين وليؤيّد سلطته ويوضّح رئاسته اراد ان تجري على يدهِ المعجزات الباهرة. فقد قال الكتاب (اعمال ٥ : ١٢) اجمالًا عن جميعهم انه « جرت على ايدي الرسل آيات وعجائب كثيرة في الشعب ». الّا ان الكتاب ضرب صفحاً عمّا صنعه سائر الرسل ولم يذكر من هذه الآيات والعجائب التي تمت في الايام الاولى من الكنيسة الّا ما جرى على يد بطرس رغبةً منهُ في ان يبيّن ما

كان لهُ من الرئاسة والسلطة وليوصي بالاعتبار الواجب لهُ. فمن هذه الآيات شفاء المخلّع ايناس المضطجع على فراش الاوجاع في لُدّ منذ ثماني سنين (اعمال ٩: ٣٣ و٣٤). واقامة طابيتا من الموت في يافا (اعمال ٩: ٤٠). وشفاء المرضى بظلّ بطرس: « ان الناس كانوا يخرجون بالمرضى الى الشوارع ويضعونهم على فُرش وأسرَّة ليقع ولو ظلُّ بطرس عند اجتيازهِ على بعض منهم فيبرأوا من كل علّةٍ بهم » (اعمال ٥: ١٥). كان المرضى اذا لمسوا ثوب المسيح يبرأون من امراضهم ولكن في هذا الموضع نرى انّ ظلّ بطرس كان يشفي المرضى وذلك بالقوة التي اعطاه اياها المسيح. وقد روى كتاب الاعمال وقصّ بالتفصيل ما جرى للرجل الذي كان اعرج من بطن امّهِ فشفاه بطرس عند باب الهيكل الحسن في وقت صلاة الساعة التاسعة حيث كان يجتمع الشعب للصلاة: « فتفرّس فيه بطرس مع يوحنّا وقال: انظر الينا... فقال بطرس: ليس لي فضّة ولا ذهب ولكني اعطيك ما عندي. باسم يسوع المسيح الناصري قُم وامشِ » (اعمال ٣: ٤ و٦). ثم خطب بطرس مرّة ثانيةً مبيّناً لليهود ان يسوع هو المسيح وان الله اقامهُ من الموت وحرّضهم قائلًا: « توبوا وارجعوا لتُمحى خطاياكم » (اعمال ٣: ١٩). وخطب ايضاً مرة ثالثة وبجرأةٍ وقوّة كمن يتكلم بسلطة امام محفل اليهود حيث اجتمع « رؤساؤهم والشيوخ والكتبة وحنّان رئيس الكهنة وقيافا ويوحنا والاسكندر وجميع الذين كانوا من عشيرة رؤساء الكهنة » (اعمال ٤: ٥ و٦). فلماذا لا ننظر الّا بطرس ولا نسمع الّا بطرس ولا نرى احداً يدافع عن الحقّ الّا بطرس؟ أليس ان ذلك دليل على رئاستهِ وسلطتهِ؟ ولمّا تهدد رئيس الكهنة الرسل وأمرهم ان لا يعلّموا باسم يسوع « أجاب بطرس والرسل وقالوا: ان الله احقّ من الناس بان يُطاع » (اعمال ٥: ٢٩). فترى ان الكتاب يخصّص دائماً بطرس بين سائر الرسل فلا يمكن تعليل ذلك الّا بكونهِ رئيساً على الكنيسة جمعاء.

بطرس وتأديب حنانيا وسفيرة

ومما يؤيّد رئاسة بطرس وسلطته في الكنيسة ما اخبر به سفر اعمال الرسل (٥: ١—١١) عن التأديب الذي اجراه والقصاص الصارم الذي عاقب بهِ حنانيا وسفيرة امرأته. وذلك ان المؤمنين « الذين كانوا يملكون ضياعاً او بيوتاً كانوا يبيعونها ويأتون

بأثمان المَبيعات ويُلقونها عند اقدام الرسل فيوزَّع لكل واحدٍ على حسب احتياجه » (اعمال ٤: ٣٤ و٣٥):

« وإنَّ رجلًا اسمهُ حنانيا مع سفّيرة امرأتهِ باع ملكاً لهُ واختلس بعض الثمن وامرأتهُ تعلم بذلك وأتى ببعضهِ وألقاهُ عند أقدام الرسل. فقال بطرس: يا حنانيا لماذا ملأ الشيطان قلبك حتى تكذب على الروح القدس وتختلس من ثمن الضيعة. أَلم يكن لك مدّةَ بقائهِ وبعد أن بيع أَلم يكن في سلطانك فلماذا جعلتَ في قلبك هذا الامر. إنّك لم تكذب على الناس بل على الله. فلمّا سمع حنانيا هذا الكلام سقط ومات فوقع خوفٌ عظيمٌ على جميع الذين سمعوا بذلك. فقام الفتيان وكفّنوهُ وحملوهُ ودفنوهُ. وبعد مدّة نحو ثلاث ساعات دخلت امرأتهُ وهي لم تعلم بما جرى. فأجابها بطرس قولي لي أبهذا الثمن بعتما الضيعة. فقالت: نعم بهذا. فقال لها بطرس: ما بالكما اتّفقتما على تجربة روح الربّ ها إنّ أقدام الذين دفنوا رجُلكِ بالباب وهم يحملونكِ. فسقطت في الحال عند قدميهِ وماتت. فلمّا دخل الأحداث وجدوها ميتةً فحملوها ودفنوها بجانب رجُلها. فوقع خوفٌ عظيمٌ على جميع الكنيسة وعلى كل الذين سمعوا بذلك »

ان الله سبحانهُ وتعالى اراد بهذه العقوبة السريعة الهائلة التي تمّت على يد بطرس إلقاء المهابة في نفوس الناس وحملهم على الخضوع لرؤسائهم وخاصةً لبطرس هامة الرسل ورأس الكنيسة (١

تبشير بطرس الامم الوثنية

بما انَّ بطرس هو رأس الكنيسة قد شاء الله ان يكون هو اوّل من يبشّر الامم الوثنية ويقبلهم في جمعية المؤمنين كما حدث في ارتداد قائد المئة كرنيليوس في قيصرية فلسطين فانَّ هذا الرجل « كان تقيّاً يخشى الله هو وجميع اهل بيتهِ ويُعطي الشعب صدقاتٍ كثيرة ويصلّي الى الله في كلّ حين » (اعمال ١٠: ٢). فتراءى لهُ ملاكُ الله وقال له: « أرسل الآن رجالًا الى يافا واستحضر سمعان الملقّب بطرس ». وفي اثناء ذلك أعلن الله لبطرس برؤيا لطيفة ان لا يتردد في قبول مثل هؤلاء في الكنيسة. فذهب بطرس الى قيصرية فلسطين حيث كان يقيم كرنيليوس ووعظهُ هو وجميع اهل بيتهِ وبينما هو يكلّمهم عن السيد المسيح حلّ عليهم الروح القدس « حينئذٍ اجاب بطرس ألعلَّ احداً يستطيع ان يمنع الماء فلا يعتمد هؤلاء الذين نالوا الروح القدس مثلنا. ثم

---

١) انما استحق حنانيا هذا العقاب المخيف لأنه فضلًا عمّا استعمله من الكذب والاحتيال نقض نذرهُ لله تعالى الذي ألزم نفسهُ به وكانت له الحريّة ان لا ينذرهُ ويُبقي الملك او ثمنهُ في سلطانه (اعمال ٥: ٤)

أمر ان يعتمدوا باسم الربّ » (اعمال ١٠ : ٤٧ و٤٨). فهكذا كان تبشير الامم الوثنية اولًا على يد بطرس رئيس الكنيسة وذلك بتدبير خصوصي من الله لكي يكون نائب الراعي الصالح هو الذي يفتح قبل الكلّ باب الحظيرة المقدسة لهذه الخراف الضالّة. وقد اشار الى ذلك بطرس في المجمع الاورشليمي اذ قال (اعمال ١٥ : ٧): « ايها الرجال الاخوة إنّكم تعلمون أنّه من الأيام الاولى اختار الله من بيننا أنّ الامم من فمي يسمعون كلمة الانجيل فيؤمنون »

امّا ما ورد في سفر اعمال الرسل (٨ : ١٤) وهو: « لما سمع الرسل الذين في اورشليم ان اهل السامرة قد قبلوا كلمة الله ارسلوا اليهم بطرس ويوحنا » فلا يُستنتج منه شيء ضدّ رئاسة بطرس في الكنيسة. لانهُ لم يُرسَل بطرس كمرؤوس يُعطَى الاوامر بل كرئيس يُطلب اليهِ ان يتوجّه الى السامرة لما لهُ من النفوذ والاعتبار وخاصّةً لانّ توطيد الايمان في قلوب اهل السامرة كان لهُ شأنٌ عظيم لانّهم أوّل أمّة قبلت ايمان المسيح خارج اليهودية وكان ارتدادها توطئة لارتداد الامم الوثنية. فرأى التلاميذ انه يليق ان يذهب اليهم من كان رأس الكنيسة ولهُ المقام الاوّل فيها والسلطة التامّة

بطرس في السجن

ثم اننا نتحقق مما يخبره لوقا عن سَجْن بطرس عظم شأنهِ واعتبارهِ لدى جماعة المؤمنين وانه كان الرئيس في الكنيسة. فعند ما تكلّم لوقا عن اضطهاد هيرودوس للكنيسة وقتلهِ يعقوب الرسول اكتفى بهذه العبارة « وقتل يعقوب اخا يوحنا بالسيف » (اعمال ١٢ : ٢). امّا لدى كلامه عن سَجن بطرس وحفظهِ للقتل فيُرينا لوقا الكنيسة جمعاء مهتمّة لنجاته وحفظ حياتهِ الثمينة تتضرّع الى الله بصلوات حارّة « فكان بطرس محفوظاً في السجن وكانت الكنيسة تصلّي الى الله من اجلهِ بلا انقطاع » (اعمال ١٢ : ٥). وما سبب هذه الصلوات المتواصلة الّا اهتمام الكنيسة برئيسها المنوط اليه تدبيرها. وقد استجاب الله توسّلات الكنيسة لحفظ حياته ففي ليلة اليوم الذي كان عزم فيهِ هيرودس على قتلهِ ارسل الله ملاكهُ ونجّى نائبهُ. فشكر بطرس الله وقال: « الآن علمتُ يقيناً ان الربّ قد ارسل ملاكه وانقذني من يد هيرودس ومن كلّ ما تربّصه بي شعب اليهود » (اعمال ١٢ : ١١)

بطرس ومجمع الرسل في أورشليم

ولدينا على رئاسة بطرس برهان آخر من المجمع الاول الذي التأم فيهِ الرسل للبحث عن مسألة الختان وسُنَن موسى. فان بطرس هو الذي ترأس المجمع بصفتهِ رئيساً للكنيسة فعرض المسألة وشرحها وبيّن بالبراهين ما الذي يلزم ان يُقرَّر فيها وجزم في الامر كما يتضح من سفر الاعمال: « واذ جرت مباحثة كثيرة قام بطرس وقال لهم: ايها الرجال الاخوة... لِمَ تجرّبون الله لتضعوا على رقاب التلاميذ نيرًا لم يستطع آباؤنا ولا نحن ان نحمله. ولكن بنعمة الربّ يسوع نؤمن ان نخلُص نحن مثل اولئك. فسكتت الجماعة كلُّها » (١٥ : ٧ — ١٢). ثم تكلّم يعقوب وبيّن انهُ موافق لرأي بطرس قائلًا: « قد شرح سمعان كيف افتقد الله الامم منذ الاوّل ليتخذ منهم شعباً لاسمه الخ » (اعمال ١٥ : ١٤) (١. وليس في قول يعقوب (١٥ : ١٩): « فلذلك احكم » ما يدلُّ على رئاسة لان في المجامع يحكم حقيقةً جميع الاساقفة مع رئيسهم

بطرس وبولس

ويحسن بنا قبل الختام ان نشير الى ما صنعهُ بولس الرسول بعد ارتداده الى الرب. وقد اخبرنا به هو نفسه في رسالته الى اهل غلاطية (١ : ١٥—١٩) قال: « لمّا ارتضى الله الذي فرزني منذُ كنتُ في جوف امّي ودعاني بنعمته ان يُعلن ابنهُ فيّ لأُبشر بهِ بين الامم لساعتي لم أُصغِ الى اللحم والدم ولا انطلقتُ الى اورشليم الى الذين هم رُسل قبلي بل سرتُ الى ديار العرب وبعد ذلك رجعتُ الى دمشق ثم إني بعد ثلاث سنين انطلقت الى اورشليم لأزور بطرس فأقمتُ عنده خمسة عشر يوماً ولم أَرَ غيره من الرسل سوى يعقوب اخي الربّ ». ان يعقوب هذا كان اسقف اورشليم. فما سبب تخصيص بطرس بالزيارة دون سائر الرسل والاقامة عنده خمسة عشر يوماً الّا لانّ بولس الرسول كان يعتبر بطرس رئيساً مُقاماً من السيّد المسيح على الكنيسة جمعاء فكان

---

١) لا يخفى ان بطرس لِما لهُ من السلطة في الكنيسة أنشأ الكراسي الثلاثة المشهورة بين جميع الكراسي الاسقفية في العالم المسيحي اي كراسي رومية وانطاكية والاسكندرية. فبعد ان اسس كرسي انطاكية باقامته مدة سبع سنوات في تلك المدينة انتقل الى قاعدة مملكة الرومانيين وأسّس كرسي رومية كما تعدّدت الشواهد على ذلك. ومن هناك ارسل تلميذه مرقس واسّس كرسي الاسكندرية. ومن ثم فالبطريركيات الممتازة في الكنيسة تنتسب الى بطرس هامة الرسل

لا بدَّ له من زيارته ومخابرته في امور الكنيسة ونشر الايمان والتبشير بيسوع المسيح

ولا يُنقِص شيئاً من سلطة القديس بطرس ولا يضرّها مقاومةُ بولس الرسول لهُ في حادث خصوصي أوردَ خبرهُ في رسالتهِ الى اهل غلاطية (٢ : ١١) قال: «لمَّا قدِمَ كيفا الى انطاكية قاومتُهُ مواجهةً لانَّهُ كان ملوماً». وذلك ان بطرس «قبل قدوم قومٍ من عند يعقوب كان يأكل مع الامم فلمَّا قدموا تنحَّى واعتزل مخافةً من أهل الختان وتظاهر معهُ سائر اليهود حتى ان برنابا ايضاً انجذب الى تظاهرهم» (غلاطية ٢ : ١٢ و١٣). فتنحّي بطرس واعتزالهُ الاكل مع المتنصِّرين من الامم انما كان لئلّا يشكِك المتنصِّرين من اليهود لان اليهود لم يكونوا يؤاكلون الامم كما يُستفاد من سفر الاعمال ١١ : ٢ و٣) اذ ذهب بطرس الى قيصريَّة بالهام من الله لمَّا استدعاه قائد المائة كرنيليوس بايعاز الملاك. فان الذين من اهل الختان استغربوا دخول بطرس على رجال قُلف والاكل معهم. فخشي بولس من ان يظنّ المتنصّرون من الامم انهم ملتزمون بحفظ شريعة موسى فلذلك قاوم بطرس. الّا ان الشيء الذي قال بولس ان بطرس كان ملوماً فيه لم يكن شيئاً متعلّقاً بالايمان ولا بالآداب ولا بالتدابير العمومية ولا بالسلطة العامة ولا بالعصمة. انما كان امرًا خصوصيًّا لم يرهُ بولس مناسباً في تلك الظروف. فلما ظهر لبطرس ان بولس كان مُحقًّا انقاد لرأيهِ شأن الرئيس الحكيم وكما ينقاد الملك الى رأي وزيره في اجراء بعض التدابير اذا رآهُ صوابيًّا

وقد لاحظ بعض العلماء ان ما صنعه بولس ليس فقط لا يُضعِف سلطة بطرس بل بالعكس يؤيّدها ويثبتها. لانه لو كان غير بطرس اعتزل مؤاكلة المتنصِّرين من الامم لمَا كان بولس اكترث لهذا الامر. لكن اذ كان بطرس رئيس الكنيسة كان مثله مؤثرًا في جماعة المتنصرين من اليهود والتلاميذ ومن شأنه ان يدفعهم على الاقتداء بهِ كما حدث بالفعل إذ ان سائر اليهود حتى برنابا تظاهروا مع بطرس وهذا ما خشيهُ بولس ودفعهُ الى مقاومتهِ. وقد رأينا ان بطرس هو أول مَن خالط الامم الممثَّلة بشخص كرنيليوس قائد المائة وأهل بيتهِ وأكل معهم. وهو الذي في مجمع اورشليم رفع نير الختان الثقيل عن رقاب المتنصرين من الامم. ومن ثمَّ فاعتزاله الامم هذه المرَّة لم يكن عن ضلال منه بل عن خوفهِ ان يشكك مَن انضمَّ الى الكنيسة من اليهود. فكانت غايته حميدة. لكنّ بولس كان يخشى ان يُحدِث اعتزال بطرس

نفورًا بين المتنصرين من اليهود ومن الامم فلهذا السبب قاومهُ

ويعلم القرَّاء ان بولس الرسول نفسه تصرَّف احياناً كما تصرَّف بطرس. فانه لمَّا اراد ان يأخذ معهُ تيموتاوس رفيقاً في الرسالة لم يحجم عن ان يختنه مراعاةً لخاطر اليهود ولئلَّا يشككهم. وقد ذكر ذلك سفر الاعمال (١٦ : ١-٣) اذ قال عن بولس: «وقدم الى دربة ولسترة واذا بتلميذ هناك اسمه تيموتاوس ابن امرأة يهودية مؤمنة لكنَّ اباه يوناني وكان مشهودًا لهُ من الاخوة الذين في لسترة وايقونية فاراد ان ينطلق هذا معهُ فاخذهُ وختنه من اجل اليهود الذين في هذه الامكنة لانَّ جميعهم كانوا يعرفون ان اباهُ كان يونانيًّا»

القديس بطرس في ليتورجية الروم الارثوذكس

يعلم اخوتنا الروم الارثوذكس ان الليتورجية والصلوات المرتبة فيها من الآباء القديسين منذ القديم تبيّن جليًّا ايمان الكنيسة ومُعتقَدها. فلنفتح كتاب المناون للروم الارثوذكس(١ ولنطالع الصلوات الجميلة التي تتلى في عيد القديسَيْنِ الرسولين بطرس وبولس (في ٢٩ حزيران) فنتحقق ما كانت تعتقده كنيستهم عن القديس بطرس قبل انفصالهم عنَّا:

يُسمَّى بطرس «زعيم الرُسل» (ص ٢٤٤ ع ١). «يا بطرس الصخرة والقاعدة». «يا بطرس هامة الرُسل المشرَّفين» (ص٢٤٥ع٢). «سلَّمَ (الرب) اليكَ زمام كنيسته اولًا». «منحك مسؤولية الحلّ والربط» (ص ٢٥٠ ع ١). «متقدِّم على الرسل في الجلسة بتشريف». «سلّم اليك رعيته المحبوبة» (ص ٢٥٢ ع ٢). «لقد دُعيتَ صخرة باستحقاق التي عليها وطّد الرب ايمان الكنيسة الذي لا يتزعزع جاعلًا اياكَ رئيس رعاة الاغنام الناطقة. ومن ثم بما انهُ صالح اقامك اميناً لمفاتيح الابواب السماوية لتفتح لجميع الذين يبادرون اليها بايمان» (ص ٢٥٥ ع ١ و٢)

فالذي تدعوهُ الليتورجية الارثوذكسية زعيم الرسل. وهامة الرُسل. والمتقدّم على الرُسل والمسلَّم اليهِ زمام كنيسة المسيح اولًا. والممنوحة اليهِ مسؤولية الحلّ والربط. والمسلَّمة اليهِ رعيَّة المسيح المحبوبة. والذي جعله الربّ رئيس رُعاة الاغنام

---

١) المناون الكنائسي للروم الارثوذكس الجزء الثاني المطبوع في المطبعة الادبية ببيروت سنة ١٨٨٦. نشير بالحرف ص الى الصفحة وبالحرف ع الى العمود في الصفحة

الناطقة . ألا تعترف هذه الليتورجية بانه هو المقام من السيد المسيح رئيساً تامّ السلطة ليس شرفاً فقط بل فعلاً على الكنيسة التي اسسها ؟

الختام

ها اننا روينا ما ورد عن القديس بطرس في الاناجيل المقدّسة وفي سفر اعمال الرسل وفي الليتورجية . فنسأل القارئ اللبيب لو افترضنا ان جميع ذلك ورد وقيل لا عن القديس بطرس لكن عن احد رفقائهِ الرُسل كالقدّيس فيلبُّس مثلاً أليس ان القارئ كان استنتج ان فيلبس هو الرئيس على الرسل . والحال ان جميع ما رويناه قيل عن بطرس لا عن غيرهِ من الرسل . فيُستنتج طبعاً وضرورةً انهُ هو الرئيس اذ لا بدَّ من رئيس في جماعة منظَّمة سوف تنتشر في العالم اجمع

فكما انه لا بُدّ من رئيس في كل مملكة وفي كلّ جمعية وفي كل عائلة كذلك في كنيسة المسيح التي هي واحدة لا اثنتانِ لا بُدَّ من رئيس يأمر وينهي ويحافظ على الوحدة والايمان ويسهر على الآداب . وهذا الرئيس هو الذي اقامهُ السيد المسيح اي بطرس وخلفاؤهُ على كرسي رومية حيث استشهد بطرس (١ والذي قال له « انتَ الصفاة وعلى هذه الصفاة سأبني كنيستي وابواب الجحيم لن تقوى عليها » (متى ١٦ : ١٨) ثبّتْ اخوتك » (لوقا ٢٢ : ٣٢) . « إرعَ خِرافي . . . إرعَ غنمي » (يوحنا ٢١ : ١٦ و ١٧)

فمن كل ما سبق يتضح لكلّ ذي بصيرة وعقل سليم وقلبٍ مستقيم ان السيد المسيح اختار بطرس الرسول واقامه نائباً عنه على الارض وأساساً للكنيسة ورأسها المنظور وراعي جميع المؤمنين وقلّدهُ السلطة المطلقة . وان القديس بطرس بعد صعود الرب الى السماء تصرَّف تصرُّف رئيس . وان جميع المؤمنين شرقاً وغرباً منذ نشأة الكنيسة اعتبروا القديس بطرس رئيسها الشرعي وانقادوا لطاعتهِ عملاً بمشيئة يسوع المسيح لاسمه السجود وحسبوا خلفاءهُ على الكرسي الروماني وارثين لسلطتهِ كما يتضح من تاريخ الكنيسة ومن اقوال الآباء ومن تحديدات المجامع وكما يقضي بهِ العقل السليم الذي يحكم بأن كلّ جماعة منظورة لا تقوم الّا برأس منظور

---

١) « يا بطرس هامة الرُسل لقد تركت كل شيء وتبعتَ المعلم هاتفاً نحوه انّي اموت معك لكي احيا الحياة السعيدة فحصلتَ اول اسقف لرومية المدينة الكبرى ومجداً وفخراً وقاعدة للكنيسة فأبواب الجحيم لا تقوى عليها كما سبق فقال المسيح حقيقةً » (المناون ص ٣٦٣ ع ٢)